سفْر آدابار

رُسُلْ للنّشر والتّرجمة
فيينا - النمسا
الطبعة العربية الأولى 2020
جميع الحقوق محفوظة
سفر آدابار - رواية
المؤلف: أحمد عبد القادر
تصميم الغلاف: رُسُلْ للنشر والترجمة - هاني جبر
رقم الإيداع الدولي - ISBN:

- لا يسمح بإعادة نشر الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال أو اضافة أي تعديلات أو تغييرات عليه دون إذن خطي خطي مسبق من الناشر.

- All rights reserved, No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the perior permission of the publisher.

Find us on
Facebook
rosol.publishing@outlook.com
twitter.com/PublishingRosol

سِفْرُ آدابار

أحمد عبد القادر

روايـــة

2020

|لقد أعطاه "إيا" كل الحكمة ليفسر مشيئة الآلهة,
أعطاه الحكمة, ولكنه لم يمنحه الحياة الأبديّة...
خلقه ليكون حافظاً بين بني البشر|
من الرقيم الأول لأسطورة أدابا البابليّة

مدخلٌ إلى مجازِ الانبثاق والتكوين

أيّ رؤيا كانت تلك التي اجتثتني من عميقِ رقادي وكانت لهاويتي في العدم قعراً ولسقوطي الأبدي ارتطاماً؟ كنخيرِ ثورٍ في سورة غضبه, تنكمش الحياة على الموت لدى سماعه, وتتصدع السماء له وتصفرّ الوجوه حتى لكأنّها جمادٌ لم تمسسه روحٌ قط. صراخٌ، وعويلٌ، ونحيبٌ تُغرق القلوب حتى تلفظ آخر آمالها وتستكين للفناء وبرودته.

أأرانيَ الآن في جسدٍ فانٍ من أجساد البشر؟ أيكون ذاك حقاً؟! أم هو حلمٌ وما حسِبتُه رؤيا كان هو الحق؟ أيكون حكمك يا أبتاه قد بلغ هذا المبلغ من الثأر والاحتقار؟! أوَتكون عدالتك نزوةَ طاغيةٍ متغطرسٍ, أقام مزاجه قانوناً وأناه دستوراً؟ أجعلت أخيراً ميزان قدرتك قريناً لميزان عدلك؟

أبتاه لا أجرؤ على أن أطلب منك أن تديننني بقَدَرٍ أرتضيه، لكن ثأرك الذي حقّ علي الآن هو فوق طاقتي وقسوته لا تكافئ مُقترَفي. أوليس قصد العقاب هو التطهير؟ فلمَ إذاً يكون جزائي تدنيس نفسي بجسدٍ كأجسادهم وحياة كحياتهم؟! أرجوك وأستشفع شبهي الكبير بذاتك، ذاك الشبه الذي فاق ما شاركك به إخوتي حتى باتوا يحسدونني سرّاً عليه, أرجوك أن تطوي هذا البدن الكريه عني, فإن قلبه مريضٌ قد شَئِف وجشعه عظيم لا يندمل؛ لا يفتأ يوعز لنفسي بمزيد لا أعلم من كنهه أمراً, ولم أختبر من غايته مراداً. دعني أتلاشى مرة أخرى إلى الظلمة, فلا يؤلمني هذا الجسد الوسواس بمطالبه. دع العدم يكون خليل نفسي مرة أخرى, خيرٌ لها من أن توأَد في هذا الطمي الذي أحمله ويحملني! انظرْ إليه كيف يَحِنُّ إلى صنوه ونوعه فينجذب إليه في قاع الأرض. حنينٌ يجعلني بالكاد قادراً على الوقوف على تلك الساقين الهزيلتين؛ ساقَيَّ.

مولاي, حين وقفت أمام عرشك في مجلسٍ كان إخوتي حاشيته, وشطنت عن

رأيك وسننك، لم أفعلها عَدواً وإنكاراً لحكمتك ومُطلَقِ نفوذك، ولم أخالفك بغية التمرد؛ لكنك أنعمت على نفسي بنزاهة واستقامة لم يكن لي معهما إلا أن أقول لك ما أؤمن به؛ فإن أردت مني اعتذاراً لما فعلت, أو إقراراً بذنب اقترفت لخالف ذاك ذاتي الحقّ التي ما كان لها إلّا أن تظهر على باطل مادّتهم بـ (لا).

نعم, فليتردد رفضي هذا في أرجاء أزليتك وسلطانك، ولتُنَصّب على روحي خطاطيف هذا البدن وعذاباته كلها إن أردت، فإن بادرةً كتلك لن تكون إلا نقيصة تدمغ روحي تحت هذا الجلد.

ليس هذا بِكبرٍ, فإني سائلك الرحمةَ بعدد أنفاسي في هذا الوعاء الهالك؛ ولكنني أجد في لا(ئي) خلوداً لذاتي التي هي من ذاتك. فإن لم أكن جديراً بعطفك أكن قميناً بتقديرك. وإني لمتوسل إليك يا مولاي أن لا تأخذ كلماتي مأخذ الهَرَج, فهذه أوّل منصة تتاح لي منذ نزاعنا المشؤوم لأدافع عن فعلي. لكن حيرتي وارتباكي على هذه البسيطة وأصداءَ اندفاعات المادة في سجن روحي تجعلني غير متيقّنٍ من وجوب تسلسلِ حججي، فبِتّ أقدّمهن وأؤخرهن على غير هدًى من برهان دامغ سوى ما أعتقد به من أكيدِ براءتي.

لا أدري إلى أين تقودني تلك الأقدام الجارية بلا غايةٍ بادية؛ أأستطيع إبطاءها إن أردت؟ نعم إنها تأتمر لأمري في أفعالها, دون مغازيها.

دعني أُجيل حواسي في منفاي الأخضر علّني أجد آثاراً وعلاماتٍ قد تركتها لي فأستهدي بها على طريق الإياب.

أشجارٌ تسعى إلى السماء بكل ما أتتها طبيعتها من إمكانية.

أعشاب رطبة تنفر من التراب إلى الهواء, فتحيا.

ريحٌ صافرةٌ تغزو الخلائل.

وبهائم أقل خبثاً من بني التراب تَعمُر في فنائيّتها المَقضيّةِ بكينونتها.

أيا ليتني كنت ذاك المخلوقَ الزاحف على بطنه يتصيد بصبرٍ طرائده, فلا شرّ يفعله إلا شرّ الضرورة؛ أو ذاك الجارحَ في السماء يُحلّق حتى يجد ما ينشب

مخالبه فيه، فلا شر يفعله إلا شر الضرورة؛ أو حتى في هيئة ومصير ذاك المخلوق المذيَّل المتألم بين مخالب الطائر، لا شر أصابه إلا شر الضرورة.
لكني، خلافاً لتلك الهيئات, حبيسُ جسدٍ يرى الشر ضرورة؛ كيف لا وقد أيقن حتميّة أَجله فقدّر معنى الحياة بالخلود، فها هو عبدُ فكرته وكل ما نضح عنها من أصنام يتبعها بهوسٍ روحانيّ, هو من الهيام بشيءٍ, إلى أقاصي العنف ضد نفسه وغيره. لا يردف تلك الفكرة شرطٌ سوى أبديةٍ سرابيّةٍ تعزّيه في متقلَّبات شروره ومَدانيه. أَوَتظن جاداً أنهم سيثمّنون الحياة التي وهبتهم؟! بل سوف يتناسونها ويجحدون بها بأن يَعِدوا أنفسهم بالأبد إلى جانب آلهتهم؛ سيقدمون الأضاحي والنذور وسيحتسبون كل نعمهم رهينة لتلك الأبديّة.
قد رموا نعمتك بوجهك يا أبتي وأرادوا أُخرى أمدّ وأدوم، وكأنّ المعنى في طول البقاء، وكأن غاية النَّفَس فيما يليه, وقد لا يليه آخرُ قط. أوْحِ لي صادقاً يا مولاي, ألا تضحكك تكهناتهم؟ أحياناً هم عبثيّون عدميّون، وأخرى هم عبيدٌ مؤمنون! أفيا مَنْ أقاموك جوراً نخّاساً لهم, ما أتعس ما يظنونه بك وبحياتهم! مازالوا لا يألون جهداً يبحثون عن معناها في نهايتها أو في ما بعدها.
الموت هو نهاية كل حي, لكنه ليس خُلاصته. صَدِّقوا بالعدم, وجِدوا فيه أبديّتكم وخلاصكم, لا قبركم وبؤسكم؛ تغنّوا به, واحتفوا به! كونوا إرثاً لبعضكم, ترثوا الخلود وأصْلَ الوجود.
لست أدّعي عليهم شيئاً لم أخبَره عنهم، فذاك ليس من طبعي، لكن خبثهم ما انفك يتدفق في عروقي منذ صحوتي. أشعر بفناءٍ وخوفٍ من الزوال يحثني بلا كلل على استجداء ما يستديمه من فكرةٍ أو مادة. غير هادفٍ إلى خطأٍ أو صواب، غير مُفرِّقٍ بين سُمٍّ ودواء, طعام ومَهلك, بينك وبين آلهتهم بعديدها ومفردها, خلّقوها من تراب عقولهم؛ هي هم, لكن زادوا عليها الكثير من دنس مادتهم، فأصبحت أشنع منهم، وحملوها في رؤوسهم صنماً من طين لا تراه عينُ رأسٍ, لكن عيون القلوب والعقول تراه وتزدريه وتتلظى بغضاً له. إنه لجسدٌ أوهنه عبءُ الموت والخلود.

اسمع يا مولاي صدى رعبهم من العيش في شاكلتي الآنية الآن. أَنصتْ دون تبجيل تبذله لمرآهم كيف يطمعون ببَعثٍ لا تحدوه نهاية, بعثٍ أَعدّوا له جناناً وجحيماً من طميهم ومادتهم! إنهم أسرى الطين, فعجبي أيُّ خيرٍ رأيت فيهم!
أذكر حين جمعْتنا وصرّحت مُباهياً: "انظروا كيف تسعى تلك المادة إلى نفسها وتتحد"، لم أقل لك شيئاً حينها، لم أثنِ عليك وعلى خلقك الجديد كإخوتي المتزلفين في أخلاقهم وأفعالهم، لكني صمتّ وراقبت، وعلمت حينها أن تلك المادة لا تتحد، بل تلتهم نفسها وتبتلعها، وما إن تبزغ ذوات فيها حتى يكون بينهم التناحر, تناحر في سبيل مزيد يرونه ومزيد لا يرونه اضطروا بطبيعتهم لاختلاقه لشدة جشعهم. يظن أولئك الحمقى أن في "مزيدهم" الغيبي ذاك تسامياً وقداسة. تباً لهم أما علموا أن كل مزيدٍ كمّ, وكلّ كمٍّ مادة؟! فليبحثوا عن ذواتهم في الاكتفاء إن أفلحوا!
فلا روح إلا لبائدٍ اعتنقَ فناءه, ووجد أزلية جديدة في كل لحظة يعيشها.

نعم يا أبتي, قد خطر لي ما أسلفت، وإن بألفاظ أقل دقة وحسماً، لكني تحفّظت عليه ما وسِع نزعتي الغيورة في محاكاة تملق إخوتي لك أن تمنعني، وهي كما تعلم لم تمسكني طويلاً عن لفظ مكبوتِ رأيي الذي طردني من جوارك.

بدأت أشعر الآن بضعف يفوق الإنهاك بأثره على الجسد والإرادة وعلى ملامح أناي فيذويها, ويمزجها بخصائص الفناء, ويدعو حواسي إلى زوالٍ مؤقتٍ لذيذ بين يدي الوجود. وفي الوقت ذاته أشعر بانفراجٍ لهبوط الظلام, يخفي ما ظهر من عيوب هذا العالم عني, وما ظهر من عيوبي عنه. كما أن في زرقة نور ذاك الكوكب في السماء سَكِينةً لدخائلي، وفي برودة الهواء خدراً للجسد, فلا أشعر لا به ولا بآلامه. وفي الصمت أسمع صوتي بوضوح فأكون ذاتي حتى ولو لأنفاسٍ

معدودات, فلا ينغص علي رضاي الدنيوي إلا استمرارُ انكفاء إرثهم الخائب في فاكرتي بزخمٍ غير مهادن لتعبي وازدرائي؛ فتارةً لا أقوى على الاكتراث، وتارة تستثيرني دوافعهم، وأخرى تبعث في حلقي قهقهات ساخرة ومشفقة.
دعنا من كل هذا, فلا شيءَ أحبُّ إليّ الآن أكثر من اللجوء إلى سفح تلك الصخرة, أسند عليها خاتمة يومي ويقظتي.
آهِ لو تعلم كم يشعرني بالراحة تلاطم المياه المحيطة بي مع بعضها ومع اليابسة على مشارفها! كأنها تنوب عن كلماتي الخديجة في وصف شائك دخائلي، كشيء من الشعر كان من نفسي الحقّ يوماً وقد تجلى الآن أمام بصري. أأنا خلقته هكذا أم كان قبلي على الدوام بهذا الجموح؟!.

العبور الأول: نبيّ الذات

-١

قبل أن أروي ما تيسر لي من أحداث رحلته عليَّ أن أجعل حقيقة أني لست من مريديه أو حواريه واضحةً في الأذهان على الرغم من أنّي كنت رفيقاً له في تجواله وترديه في هذه الأرض. وأنا لا أقول "تردٍّ" لأصف سقوطاً أخلاقياً وتخلياً تدريجياً عن الفضائل, بل على العكس تماماً؛ لكنْ للاستطراد في هذا الأمر أوانُه الذي لم يحن بعد.

وعلى الرغم مما قد تبعث قصته من انطباعات روحانية صوفية في النفوس، فإن تدويني إياها ليس له طابع القداسة, وإنّما شيء من التبجيل لشخصه, كما أنّ النزاهة الفنية تدفعني أن أذكر هذه الخاطرة التي مرت بي حين عزمت على الكتابة فكادت تفترني عن مرادي, وهي أن انشغالي بشيخوختي أحال روحي فجةً وأقل رهافة وجعلها قنوعةً بسماجة التعابير الشائعة وما في متناول اللسان من تعابير صوتية، إلا أنها ما زالت تستبشر حين تجد مفردةً ضائعة عن معناها في ثنايا اللامبالاة والتسويات الرخيصة مع اللغة.

عليك عزيزي القارئ ألا تأخذ هذا الاعتراف على أنه تملّصٌ مهذّب وماكر مما يلزمني به الأدب من دقة وكياسة, لكنه على العكس تماماً, هو جزءٌ من ذاك الالتزام.

أما عن دافعي لجلب مسيرة حياته إلى انتباهكم فهو ليس عمق إيماني بحذافيرها وتفاصيلها ومعجزاتها, وإن لم أكن أيضاً منكرها، فقد شهدت على الكثير منها، وليس فقط وعدي إيّاه بتسجيلها؛ بل ما همز صنعتي المعتَزلة بالكتابة هو شعورٌ غريزيّ بالمسؤولية شبيه تماماً لذاك الذي استملك فؤاد الناسك حين وجده عارياً مستلقياً على تلك الصخرة الرطبة, من دون أن تمنعه ذقنه الكثة وشعره الأشعث الطويل حتى كتفيه من تبيان ملامحه المعذَّبة المرهقة.

لم يكن قد فتح عينيه بعد, ولا أيّاً من حواسه, أو "بوابات جحيمه" كما سيصفها لاحقاً ويُصرّ على ذمّه. لم يتردد الناسك أكثر من لحظاتٍ رزينة لم يكن ليلحظ فيها المرء حيرة أو تخبطاً, ولكنْ عجباً واستغراباً من وجود شخصٍ أجنبيٍّ على هذه الجزيرة؛ إذ إنها لم تكن هدفاً سياحياً ولا تجارياً، ولا هي في الغالب على أيٍّ من خرائطِ الأرض شائعةِ التداول. كانت منعزَلاً صغيراً ليس لُحمة ولا سداة لهذا العالم من سكانٍ وأنظمة طبيعية أو وضعية، ليست جميلةً بشكلٍ خاص, ولا قبيحة بشكل يثير الشفقة أو الحس الفني الحديث، وجودها وعدمها سواء, إلا لتلك الكيانات التي سكنتها, وهجرت العالم بها، وحين يبتلعهم ثراها سيبتلعها النسيان غالباً إلى الأبد، ولن يبقى منها إلا ظلها في هالة أسطورته المتواضعة الذكر التي أضعها الآن بين أيديكم. وما سأتلوه الآن ليس بداية قصته بطبيعة الحال، ولكن البداية التي تعنيني منها, وذلك حين حملَته ذراعا الناسك من دون أي جهد يذكر, ليَعبُر بجسده مسالك الجزيرة وصولاً إلى مسكنه المتواضع في مواد بنائه وحجمه, من دون أن يمس هذا أصالته الفنية التي أضفاها ساكنُه عليه. هذا ولم أذكر بعد خاصيته الهندسية الأساسية، وهي كونه على شاكلة قبة.

سُجّي الجسد بتؤدةٍ على فراشٍ قاسٍ بعض القسوة في أحد أطراف البيت، ثم شرع الناسك يعد له شيئاً من صيد الصباح، إذ كان ضعفه وحاجته إلى الغذاء باديين دون تكهّن أو تخمين.

لم تعد علامات التعجب ظاهرةً لا على حركات الناسك ولا على ملامحه. وأقول واثقاً إن ذاك الانطباع المستغرب الذي تلبّسه للحظات حين رأى الجثة الحية على مشارف صخور الشاطئ لم يعد يداخله حتّى في سرّه؛ إذ إنه لم يكن من ذاك النوع الملحاح في نوافل مشاعره، وأبدل هذا, وبشكل طبيعي، هوساً حميداً في عميقها، حتى إن ترهّبه في ذاك المنعزل لم يكن إلا أحد مذاهبه الفنية المتأصلة في نفسه والناتجة عن ذاك الهوس.

بدأ الجسد الممدد يتمتم بكلمات خائفةٍ, مرتعدة، لها وقعٌ من خارج عالم

البشر, جعلت الراهب يقترب بسرعة لم ينوِها, ليربت على رأسه المتعرق:
- بني, بني قد آن لك أن تخرج من براثن كوابيسك.
يبدو أن العالق في برزخٍ بين الوعي واللاوعي قد سمع ما قيل له ولكنه ما فتئ يجيب على أشباحه, فنشج بصوتٍ غير مقتنع بما يحمله من كلمات:
- أبتاه, أيّ جللٍ أخرجك عن صمتك المقدس؟!
- ليس في الصمت قداسة يا بني, بل عجز من المُحدّث أو المستمع. ولا أدري أي أبٍ تخاطب في مُلغِز كلامك, ولكنّي ذاك الذي ندب نفسه ليقوم على ضعفك حتى تتعافى وتلتئم.
لم يبدُ فاهماً ما قيل له, إذ ظلت نظراته البِكر معلقةً في الفراغ لا تطال مسعًى ولا مرسى؛ ثم بدأ فجأةً بالانتفاض بعنفٍ من مسّته فكرةٌ لا رحمة فيها ولا شفقة على جسد حاملها.
حاول الكاهن تثبيته بكل قوته خوفاً عليه أن يؤذي نفسه, وظل يردد على مسامعه: "اهدأ يا بني"، حتى بدأ يسكن جموحه المحموم غير الإرادي. بقي نظره ساهياً عدة دقائق إلى سِماك الغرفة قبل أن يتمتم بصوت عميق فيه استكانةٌ جعلت لسؤاله وقْعاً استكشافياً أكثر منه كسعي إلى إجابةٍ محددة، كمن يتلمس ما حوله حين وقوعه في بئرٍ سحيقٍ لا فرار منه.
- في أي مستقرٍ انتهيت؟
- في مأمنٍ من أذى الجسد دون الروح (أجابه الآخر وقد أحس عذابه).
- كيف أكون في مأمنٍ من أذاه و هو بحد ذاته أذاي؟! (رد باستهزاء, إذ أزعجته سذاجة القول).
- اعذرني, إذ لم أُقم اعتباراً لأي تفاصيل فلسفية أو فنية حين هممت بمساعدتك، فليس لي أن أفترض جزافاً نيتك تجاه نفسك (قال عذره صادقاً متجاهلاً نبرة السخرية في محدثه ثم استطرد): صدقني, إن لي علماً عن جموح المادة في البدن، لكن حال ترويضه تسود الروح ويصبح أداة لها.
- بلجام شرائعكم تعني؟ (لفظ ذاك السؤال بشفاه بالكاد تحركت, ببادرة تنمّ

على لامبالاة أو خيبة أمل).
- لا أدري ما الذي يحدوك لتظن بي سوءاً وتحسبني إمّعةً خلف العوام, لكنّي لا أظن بتلك القوانين خيراً، فهي في مذاهبها الأكثرِ إمعاناً في المادية تُغذّي مساعي الجسد ثم تكبتها, فتغشو بينه وبين الروح ليفقد خفته ويهوي كالصخر إلى القاع. ولا تعدو حينها تلك النفس أن تكون سوى حشوةِ تحنيط تبعدنا قدر المستطاع عن تعفن محتّم (أطلق قهقهةً خفيفة لم تؤثر بتاتاً في مظهره الحكيم، بل أعطته بعداً آخر، وأكمل سريعاً، إذ لم يرد أن يباعد بين فكرتيه) حين ردّدتُ هذا المجاز في جزء آخر من الجزيرة, أخذه الصدى محمل التبني وبات يدعو أرواح معظم البشر بالنطرونات.
- وما هو ذاك؟ (حدجه باهتمام باهت وإنما متزايد).
- النطرون؟ مادةٌ كانت تُستعمل في التحنيط, ليس لي من علمها سوى غاية عملها. وعلى أي حال، فإنه يسرني أنك سألت أخيراً لتعلم, لا لتسخر من علمي.
لم يبالِ ذاك المخلوق الضعيف بتلك المداعبة الماكرة على الرغم من براءة نية مُطلِقها, ولكنه استطرد بفضول آخر:
- ممَّ فررت إلى هذا المنعزل؟
- من عالم يتهافت ولا أملك إلا أن آلم له؛ وأنت؟ (قالها بنبرة تهرّبٍ لا ريب في وجوده).
- قد نفاني الخلود إلى هذا الفناء.
- وكيف يكون ذاك؟ (أراد الاستزادة بدافع شعري).
- أي نفع لك في علم ليس لك أن تكذبه وليس لك أن تصدقه؟
- صدقني, إن هذا العلم هو صنعتي.
- وأيّ صنعةٍ تكون تلك؟
- الخلقُ بالطبع, وأنا اليوم في مزاج لأصف نفسي بـ (شاعر), فاتْلُ علي الآن أسبابك.
- ليس لكلماتكم أن تختزل مصابي, لذا فلن يكون هناك طائل من الإطالة. قد

اعترضت بين يدي صانعكم على إيجادكم, فمازلت أهوي مغشياً علي كعاقبة لهذا حتى ارتطمت هنا في قعر الجحيم مصحوباً برؤيا تنفث الموت في الحياة.
- لم تهوِ بعد إلى قاعه يا بني، مازال أمامك طريق ليس بقصيرٍ إلى هناك.
- أوَتصدقني! (قالها مستغرباً, مرتاباً سخرية في محدثه).
- بالطبع نعم, وبالطبع لا (قالها واثقاً من غير سفاهة).
- أوَقادرون أنتم يا معشر البشر على مثل هذا؟
- ليس بسوادنا, ولكن، كما أسلفت، إن هذا من متطلبات صنعتي.
صمت للحظةٍ ثم تابع:
- أوَلديك اسم على هذه الأرض؟
- ليس بعد يا من حِرْت في تصديقه وتكذيبه لي.
- لا تقلق، فإني سأحرص أن تنقشع حيرتك شيئاً فشيئاً قبل أن تغادرني إلى من فَررتُ منهم، وليكن اسمك هنا وهناك آدابار.
- نادني بما شئت, ولكن ما أدراك أني مغادرك إليهم؟
- ما أراه ولا أراه، وما أوّلته من قصير رؤياك التي بعثتك إلينا.
- وأي تأويل يكون ذاك سوى عذابي الأبدي في هذا الجسد؟ (فكّر قليلاً) وما يدريك بتفاصيلها ولمّا أذكر منها سوى هَولها؟
- كُلْ طعامك الآن يا بني, واستقوِ على ضعفك به، ولك أن تعلم ما تريد, بعد أن تعلم ما هو ضروري.
انحنى الناسك على الجسد الواهن وأسنده على مُتكأ, وبدأ يلقمه بيديه دون أن يبادره ذاك بتذمرٍ أو تململ, إذ إن ما في جعبة مضيفه من فكرٍ أعجبه، جعله مطواعاً لكلماته ومتحمساً لمزيدٍ منها.

-٢

حين قعد هذه المرة من رقاده, بدا أكثر تفاوضيةً مع محيطه، وكأن عقله بدأ بسيرورة تساوم الواقع دون أن تفقده مثالياته المنسوبة إلى روحه. "فليكن موقفك الأول من الأشياء المهادنة, حتى تفهمها، ثم قرر المعاداة أو القبول"، كان آخر ما سمعه من صوت الشاعر قبل أن يغط مرة أخرى في النوم, فقد كان لذاك الاقتراح وقع التهويدة على حواسه.

أجال عينيه وسمعه في أنحاء المسكن بسلاسة لم تُجفلها الزوايا، لكن ما استوقفه هو العدد الهائل للأشكال والرسومات التي انتشرت بفوضى, أحياناً مقصودة وأحياناً عشوائية، في كافة أنحاء القبّة. لم تكن كل الرسوم تعبّر عن أشياء معينة، بل هي اختصارات لهندسيات وألون مختلطة، وفي مناطق أخرى كانت التفاصيل دقيقةً بشكل يُعلم تماماً نيّة موجدها.

كاد هذا الكم الهائل من المشاعر يصيبه بانهيار مرة أخرى، إلا أنه استطاع تمالك سلطته على قواه دون أن يحاول إخماد بصره بجفنيه, بل حتى إنه حدق دون طرف ثم ركع على ركبتيه دونما خَوَر.

- أي شيءٍ هذا الذي يكشف لي روحاً لم تتآكل داخل مادتها؟ (فكر بصوت مرتفع) أطقوس تُرقي بها آلامك, أم فتوحات لما خفي منك عنك؟ أجسراً للفانين تبني أم للخلود؟

- بل أخلق حتى أكون, ولست بهذا القول أخالف ما افترضته من رأيٍ عمّا ترى، لكني أفضله للتعبير عن مقصدي به (باغته بالإجابة من ورائه).

- أوَليس الشعر فناً بالكلمات؟ (أردف السائل على ركبتيه).

أشار الآخر بيده بإشارة تحث على اللامبالاة:

- لا تُقلق نفسك بالصفات فتدعها تلهمك ذاتك, بل انفث من روحك أنت بها. ولكنك مع ذلك على حق, وإن كان في الشعر أكثر من تبسيطك.

ثم تابع بعد تمهّل قصير مدروس:
- هو لي شرط وجودي كأي أداة أخرى للخلق، وحين أخبرتك قبلاً أني شاعر عنيت أن أشير إلى أحد مذاهبي في الحياة؛ أي ذاك وفق المجازات.
- وأي مجازٍ تقوّي به نفسك الآن؟
- القيامة وأنت طبعاً, فلاطفْ حسن نيتي واختر مجازاً لك.
- وأي شيءٍ لوجوده أثر على حرفي ومعناي كالجاذبية, فلتكن هي مجازي على هذه الأرض (تفوه بهذا بلا تردد).

أطال الناسك النظر في رفيق حديثه ثم أضاف بنبرة أكثر رتابة من سابق حديثه ليؤكّد جدية محكيّ فكرته:
- ولكن احذر يا بني, فإن المجاز خطر له قوة القوانين الفيزيائية؛ فلا مفر لا من عواقبه ولا عقابيله.
- أنا منذ الآن راضٍ بما قد يجلبه علي من خير أو شر.
- بل من خيرٍ وشر (صحح له الراهب).
- هي كما تقول.
أكد آدابار موافقته على الملاحظة مع ابتسامة متعبة كانت هي الأولى له على هذه الأرض, ورد له الآخر حبوره بابتسامة أعرض, ثم أمسك ذراعه ليساعده على النهوض على قدميه, ويدعوه بالأخرى إلى الباب:
- أمستعد للعودة إلى الخارج؟
أومأ الوافد الجديد برأسه بأن نعم.
- إذاً فلتتشبث بنفسك بكل ما أعطتك إيّاه الحياة من إرادة, فإن لهذا العالم دأباً في إغواء المرْء عن ذاته، وانظر في تلك المرآة قبل أن نغادر واحفظ وجهك جيداً فقد تضل عنه في معمعة الأشباه.
أطلق نصيحته على مسامع آدابار وشد على ذراعه ليعبرا عتبة الدار سويّةً.

-٣

وقف آدابار منتشياً بدفء أشعة الشمس, ورفع يديه ليجنبهما برودة ظل جسده، ثم قبض راحتيه ببطء طفولي كأنه يريد أن يتأكد من عدم فرار تلك الحرارة البرتقالية حال اختفائها عن عينيه في قبضته.

- أين نحن الآن في مجازك يا صاحبي على هذه الأرض؟ (سأل بحبور راضٍ عن سؤاله كمن ألمّت به نشوة الإلهام).

تأمل الشاعر قليلاً في كلمات رفيقه, وأعجبته نبرة الاستفهام الصادقة، وعبّر له عن هذا علناً:

- ليس من السهل أن تكون صادقاً, لا محابياً ولا مخاتلاً, في السياق الشعري (ثم أنهى جملته بابتسامة ودودة وعاد يتأمل في سؤال محدثه، إذ لم يرد أن يكون جوابه أقل نزاهة).

- يحلو لي الادعاء أننا في فضاء الخلود, حيث تفقد المادية هنا عواقبها وسببيتها، ولكننا لسنا كذلك تماماً, بل لسنا كذلك على الإطلاق؛ إلّا أنّي أستطيع أن أقول لك بلا تكلفٍ أو ذنب قد تقتضيه المبالغة إننا على أطراف هذي وتلك، على الأعراف بين الفناء والخلود، بين الذات وضرورات الوجود من المادّة (لفظ كلماته وتفرّس في وجه من طلبها ليعلم أي انطباعٍ تركته لديه).

- هي هبةٌ أستطيع بكل أمانةٍ تقديرها, أن تكشف لي جزءاً من نفسك بلا مواربة (شكره بكلماته الخاصة, ثم أرسل عينيه بعيداً عبر الغابة والبحر إلى الأفق وأردف وقد عبس وجهه كأنما ذبلت اللحظة في كيانه, وكأنما أدرك شقاً وجودياً بين السماء والأرض حين أطال النظر)

- أوَيُلزمني إعجابي بأفرادٍ أن أكون أكثر تسامحاً مع الإنسانية؟

- ليس بالضرورة (أجابه فاهماً ومهدِّئاً حدة أزمته تلك)، لكن ليس عليك أن تقرر شيئاً الآن، وفّر ريبتك في حاكمتك حتّى تستطيع إبصار الجوهر.

- أَسيعطيني ما سأحوزه من علمٍ على حسم أمري فيما يتعلق بهموم كهذه؟ (سأل بحزنٍ فضولي).

- سيكون له تأثير، لاشك في هذا، ولكن التجربة الإنسانية السامية, لا العامّة، هي ما سيمنحك شيئاً ليس حيازيّاً، بل أعظم، ستحولك إلى سيرورة واعية قادرةٍ على الحكم (قهقه بصوت مرتفع غير مفتعل)، ها أنا الآن رغماً عني في مزاج فلسفيّ، لكنّه بإمكاني أيضاً أن أكتفي بالقول: بل الحكمة, وليس العلم وحده.

ابتسم مختلّ الوجود, وقد أرضاه كلا الرأيين، أو بالأصح كلا التعبيرين عن نفس الفكرة.

- إن مشيئتي لك, إن راقتك مسايرتي, هي أن تولد في هذا العالم من جديد في قصيدة؛ دعها تكن مهدك الأول وصيرورتك الأولى، فإني أرى قسوة في نفسك عليك أن تلينها (كاشف الناسك صاحبه بما بيّت من نيّة تجاهه).

- فليكن الأمر كما ترى إذاً (قالها بعزيمة المُريد, ثم خطا بضع خطوات بطيئة كأنه يقترح الاستمرار في المشي, فسارع الآخر يجاوره بعجلة مُطرية).

- فخبّرني إذاً واستفضْ ما حلا لك, لمَ على مذهب الفنّ أن يكون الأول؟ (سأل آدابار وقد افتر وجهه عن انشراح في ثناياه).

- ليس عليه أن يكون كذلك، فكل الطرائق ضرورية لفهم الأخرى، ولكن الفن أوجد نفسه لتطبيع الخوف من الفناء وتجلياته من مادة ندركها، لذلك فإني أظنه الأجدر في النفاذ إلى ما سواه، (صمت وأطلق ابتسامة صغير ثم أكمل بنبرة أقرب للهمس) أو لأني أظن أن كل ما سواه ليس إلّا تمثيلات أخرى له أو منه، (ثم أبعد رأسه قليلاً وأخذ نفساً عميقاً زفره ببطء مغمضاً عينيه) ألا تجد شيئاً من الكآبة التأملية العذبة في أن أصل وعينا البشري هو الفناء! لك أن تحتفظ بهذا النوع من الكآبة فهو ضروري لذاتك الحقّ.

ابتسم آدابار.

- نعم, هذا مطمئن بشكل وجودي، فإني لا أستطيع أن أدرك ذاتي في هذا الجسد دون ألمي، إنه مرآة أناي.

ثم أردف على عجل:
- قل لي إذاً, أتخاف الموت؟
ربّت الناسك على كتف تلميذه الوحيد معجباً بفكرته, مردداً إياها بصوت وقور:
- "ألمك مرآة أناك"، (هز رأسه ليشير إلى تشاعره مع تلك العلاقة التي عبّر عنها آدابار، ثم أجاب عن السؤال الذي بدا أقل أهمية) لا, لا أخافه أبداً, على العكس, فإنّي أحسبه عزاءً لنفسي، لكن الفناء، الانقشاع عن الوجود، يؤلمني.
- حين لُعنت بهذا الجسد طلبت الفناء على الموت به (علّق آدابار بحسرةٍ باديةٍ في كلماته).
- هذا حسن جداً. إذاً فأنت مدركٌ سلفاً بوجود فرقٍ بينهما، (توقف قليلاً عن الكلام ليتدارك أفكاره) لكني أظنك مازلت تخلط بينهما.
- كيف هذا؟ (سأل مجادله باستغراب هجومي بعض الشيء).
- أظنك قد حسبت أن فناء أناك الحقة سيكون في هذا الجسد، لذلك فقد فضّلت الولوج بنفسك إلى العدم بإرادتك، كانتحار وجودي, على ذويان ذاتك في المادة (شرح فكرته مستخدماً يديه, إذ بدت فكرته أجنبية الكلمات عنه، وإن لم تكن كذلك بمفهومها ومحتواها).
-إذاً, أأنا أختبر فنائي الآن؟ (سأل دون وجوم).
-لا, فما دمت معتنقاً ألمك فأنت موجود. احرص دوماً على أن تتبع ذاك الألم الذي لا كُنه له (قام بوقفة صغيرة ليغيّر فيها نبرته إلى أخرى أكثر ممازحة) إلّا أنك موجود وحي, ومن أعراض الأخيرة أن تحتضر. ولكن دع أمر المادة للمادة (ثم أطلق ضحكة صغيرة لينبئ بنهاية نكتته الشعرية غير الموفقة، والتي كان شاكراً أنها جوملت من قرينه بابتسامة كانت الأعرض له).
تأمّلا بصمتٍ غزالاً يتهادى بين الشجيرات ويلوك العشب ببطءٍ، يتوتر أحياناً حين يتوجس خطراً من حركة عارضةٍ في الأجمات حوله، يُربِّص حواسه ويشد عضلاته حتى تحسم غريزته أمرها بمرور الخطر, فيتابع أكله وتوغله في الغابة.

كحّ الواعظ المرهف بصوت خافت, ليكسر الصمت بتدرج طبيعي، ثم وضع إحدى يديه على كتف آدابار:
- عليك أن تروّض ألمك بأن تجد الـ (كُن) خاصتك.
- الـ (كُن)؟
- أداة الخلق, أعني.
صمتا من جديدٍ ,يراقبان أوبة الغزال على أعقابه باتجاههما.

-٤
في إحدى رحلاتهما الصباحية المعتادة, طاب لآدابار أن يعبر النهر في مكان ضحلٍ من مجراه بدل أن يقطعه فوق جسر الخشب، ولم يمانع رفيق جولاته هذا القرار فصاحبه.
- ألعجلةٍ من أمرك كان ذاك؟ (سأل الراهب بصوت لم يعكر صفاء الفجر).
- وإلى أيّ شيءٍ أعجل, وغاية رحلاتنا مبتدؤها لا منتهاها؟! لكن تدفق النهر دعاني لأشعر بذاته الثابتة على الرغم من جريانها. جسدٌ واحد, روح واحدة وألف حياة. أبدية تتسع في لحظة (انساب صوته وكأنما بنفس وتيرة ترقرق النهر)، أتعلم, حين هويت وتلقفتني جاذبية هذا الجسد وصلت إلى عينَيّ ومضات من مسالك الناس على هذه الأرض، وعجبت فيما عجبت من إسراعهم الدائم إلى نهاية ما، منكرين للتجربة, ساعين للنشوة.
- أوليس من حق ما نبدؤه أن ننهيَه؟ (سأل الراهب بابتسامة اختبارية).
- بلى, لكن علينا أن نصعد إلى مرادنا، أن نسمع دقات شغفنا في كل لحظة نجهد للوصول إليه، ببرودة الشهيق وحرارة الزفير, كالنهر، بدل أن نستهلك قيمة الحياة نلهمها بأشكال وأشكال ضمن ذواتنا، لا أن نستسلم للسقوط لذاك المراد, لنتمرغ في طميه في بحر من الأجساد التي شاهت دون أن تدري (أجاب بنبرته الخطابية الأولى).
- أن نعتلي ألمنا في رحبة الحياة, فلا تميد بنا الأرض إلى مهالك الفانين مُعبّدة

الدروب, ضيقة الأزقة (أكمل الشاعر الفكرة بالحماسة نفسها).
- أن نجد القيمة في مكمنها الحق, لا في سرابها المختلق. غاياتنا تلك التي سمت فوقنا, لا تلك التي علّقها من خلفنا وأقراننا وعوامنا في أدبارنا. فلا نلبث نتلوى كدود الأرض, تتقدمنا ألسنتنا التي جفّت لطول تعلقها في فراغٍ غير مجدٍ، فتبدو كرقصة قبيحة لم تُعلّمها الطبيعة لأشد كائناتها احتقاراً واستعجالاً للتخلص من ذريّتها (أتمّ فكرته بنفَس واحد ثم صمت).
التفت برأسه بعيداً عن عينَيّ رفيقه وكأنما قد باغتته خاطرة أوجمته, ثم أعاد نظره إلى الراهب:
- قد قلت ما قلت صادقاً, لكن قلبي غار في جزعٍ حال أتممت كلماتي. أَوَيُجفلني الحزن عن حقيقة ما أرى؟ أيسلبني انعدام الصدى صوتي؟ أم يجبرني الإشفاق على إعماء بصري؟
- لكل صيرورةٍ عين, وعلى كل عينٍ أن ترف حتى ترى بجلاء (قال له مُطَمْئناً إياه, مربتاً على كتفه).
- قد سكّن ما قلت همّي, فكيف تسطيع الكلمات أن تنفذ من صرامة المنطق وتخاطب الروح دون وسيط؟ (أجاب وقد بدت مسحة من الاقتناع على مُحيّاه).
- قد عنيتها فنفثت فيها من روحي. كأيّ فنٍّ آخر هي الكلمات، طوفٌ إلى أثيرٍ أكثر خفّة، روحٌ تخاطب أخرى.
- لطالما شعرت بثقل الحرف على معناه، كثقل البدن على روحي، لكنها وعاءٌ لا مفرّ منه.
- ليس عليك احتقار المادة دوماً, فالعيب يكون أحياناً في بهيميّة التأويل.
- أتسألني أن أهادن سجني؟ (سأل بغضب محموم).
- وأنّى يتأتّى لي هذا؟! لكني وبحق بصيرة الفنّ أدعوك لتنظر إلى جسدك! انظر إليه كيف يأنّ لألمك, ويصرخ لغضبك، كيف يتداعى لتداعيك, وكيف يكون العكس إذ كان. السجن, هو أن تتبنى الإرادة خصائص المادة فتهوي إلى

مَحْطم، أو أن تتعسف الإرادة بالمادة فيهلكا سويةً، لست سجينها, وليست عدوك، أنتما أنت، فكن نفسك كاملاً بلا نقصان (ثمّ رمشت عيناه)
لو ترك آدابار نفسه على سجيّته لكان قد صرخ، لكنه ضبطها وبدأ يُبطء وتيرة أنفاسه إلى أن قال:
- قد نظرت يا معلّمي, وقد صَدقت. كنت على مذهب الضعفاء، إذ أجلت عين بصيرتي في الأنحاء ولم أُجِلْها على نفسي. قد ألفت ذواتهم المادة فخلّقوها في عقولهم أصناماً، وهذا ما فعلت بفكرتي فكنت أسيرها. ما أحتقره ليس المادة, بل إرادة استسلمت لها. المادة هي قوانينها, فلا تملك غير هذا. لا خير ولا شر إلّا حين نملك الخيار من الأمر (صمت وكأنما يستشير أيتابع أم يستمع).
- أكملْ يا بني، فما أظنّ جعبتك قد فرغت بعد (بنبرة صارمة حاثّة ليس فيها أيّ أثر لفراغ صبر).
- لهذا أراد العامة الانصهار في حيادية المادة بلا لائمة، سلّموا إرادتهم وحقهم لآلهة لا تُناقش وشرائع لا يبررها إلّا غيبيتها، فخير الأصنام ما لا يُرى، أو استسلموا لنظرات القطيع الهاشّة الزاجرة وأعرافه الداعية للانسياق. كدّسوا أصناماً فوق أصنام. أرادوا انعتاقاً من كل شرٍّ وخير فاختاروا انفراج النير ليكون إرادتهم الأخيرة وخيارهم الأخير، وضعوه بأيديهم حول أعناقهم وتنفّسوا الصعداء إذ تحرروا من هموم الحرية ببركته. لكن هذا هو عين الشرّ، وكل ما لزم عنه شرّ لا يغتفر، كمن ألقى حجراً من بعيد مكمن, يريد بهذا التملص من كل ما تجرّه الرمية. فعلينا ألّا ننسى أن مَقتل السيف ليس في مقبضه وأن كل ما تمسّه الإرادة هو فعلٌ مسؤولةٌ تلك الإرادة عن عقابيله.
- وأيّ خلاصٍ من هذا؟ (سأل جاداً, غير ممتحن).
لم يحرِ الآخر جواباً لهذا السؤال:
- الخلاص في اللاخلاص والتكفير عن الذنب في عدم مغفرته. احمل كل حجرٍ رجمت في صدرك, وكل حصوة ركلت في باطن قدمك، فطوبى لمن بنى شاهدة قبره من تلك الهموم.

بشّ وجه الراهب، ثم عبس، ثم استقام ليصارح تلميذه:
- قد حرت في سرعة إجابتك, فتهلل قلبي لها ثم جفل.
نظر إليه آدابار متسائلاً, وقد اعتلته مسحة من خيبة:
- وفيمَ عساه يكون ذاك؟
فكّر الشيخ قليلاً, ثم ابتسم:
- لا يقلقنك هذا الآن، لكن حسبك أن تعلم أن البصيرة ليست مجرّد بداهةٍ فَرِسة, بل إطالة نظر.
أجاب آدابار برصانة دون اندفاع:
- قد وعيت هذا، ولم يكن ما قلت محض ارتجال، بل قد تفكّرت مسبقاً بمعظمه, وألهمتني أنت تتمته, فما كان الآن لم يزد على أن يكون استبطاناً متمهلاً قيل بوتيرةٍ سريعة.
نظر الشاعر إلى تلميذه بعينين واسعتين نظرة مطمئنة:
- لم أقصد أن أوحي لك أن ظني بك قد ساء، لكن حتى على عين البصيرة أن يكون لها حاجب.
ابتسم رفيقه:
- أوتستلهم مجازك بلحمه وشعره من الطبيعة؟
ضحك الآخر من ملاحظة آدابار:
- للمجاز امتداد من حقه أن يُدارى.
ثم أضاف بصوتٍ مرح:
- تعالَ معي نزور إحدى قصائدي التي تستهلّ بقصة، إذ إن انشراح صدري يُنبئني بحين أوانها.
-٥
بدأ الشاعر يقصّ أحدوثته على مسامع آدابار:
- كان على بعد قمرين من منتصف العمر, وكان لإدراكه الاستحواذي لما انقضى من حياته على هذه الأرض ثقلٌ على كامل كيانه, ظاهره وباطنه،

فما عاد يمانع في الأسابيع القلائل الماضية إرخاء عضلاته على هواها، فانحنى ظهره على حين فجأة, وتقوسّت عنقه كطائر اللقلق, وبدأت أهمية الطعام تتناوب في مداها بين صيام أيّامٍ بلا اكتراث, ونهمٍ لا تُسوّغه الحاجة, الأمر الذي قاد بسبب الآلية الخاصة لعمل جسده إلى تهدّل بطنه على الجانبين فقط دون المقدّمة. وكباحثٍ يائس عن الخلود باع روحه, ولكن للشيطان الخطأ, لشياطين الماضي, تلك التي لا يستطيع حتى الزمن وَأدها, بل مجرّد طمرها تحت صخب الحياة ورتابة روتينها.. صيحاتُ الحقبة.. أحاديثُ الناس عن الناس.. شعرُ العشيقات مختلف الألوان على الوسادة, و نوم مديد وأغانٍ بتفاهتها لا غاية لها إلّا أن تهدهد النفس عن دخائلها. تحت كل هذا ما زالت تتنفس بكيد, وانتقامٍ مبيّت، تتربص بعينيها لحظة سانحة تعيدها إلى السطح, فكانت لها تلك الفرصة حين بدأ يتجوّل في ماضيه باحثاً عن معنًى لحياته, محاولاً أن يفكّ طلّسمات هويّته الآنية, ومصارف انحداره. أمسكته أكثرُ تلك الشياطين براءة في الطلّة من يده, وجرّته بتؤدةٍ إلى تهلكته بين صحبتها التي أحاطته وبدأت تنشد:

نحن الناعقون فوق القبور
نحن الهائمون فوق الجيف
انظر في ظلام عيوننا الصديّة للنور
كيف نزفر حين تشهق,
ننظر حين تغمض,
ونألم, نألم لما لا تفهم
على فُتات ساعاتك نتدبر الأزل
بعضنا خلق من طينك, فنسيته
وبعضنا كان من لدن خوفك, فثنيته
وبعضنا من بريق عينيك, فذرفته

ومنّا من كان حلماً فأرجيته.
نحن الناعقون, نحن الهائمون
نحن شواهد ما جُهل من المدافن
لم تُمتنا ولم تُحينا. برزخيون على نبضات الوقت
والآن الآن حينُ عدلنا, فلا مفرّ
خاوياً، كما تركتنا، سنجعلك
سندع لك عينيك, ونأخذ الصدى
ولتملك يديك, وساقيك، فقد أخذنا الدرب
وليتفوه فمك بما تريد, فقد أسقطنا المعنى.

أصابه الدوار داخل عقله, لم يعد يدري بأي شيء ترك نفسه تُغوى. معلقّاً هناك فوق رُمّة الذكريات, حيث يتشرنق الحاضر بكفنه غير واعدٍ بانبعاث ثانٍ, تركته وساوسه. أشاح مرغماً - كما كان الوعيد في أنشودة عذابه - بصره عن عينيه، فجحظتا بخواء لا يُنبئ بروح، وبات يجرجر قدميه فاقدتي الاتجاهات كـأن فيهما علة خلقية أحاقت به منذ الصغر. كان العذاب الذي أصلته تلك الشياطين حقّاً بلسانه أيضاً،إذ بدأ يرطن حيناً ويهذي أحياناً, فتاه صوت عقله عن وعيه وباتت الأصوات المرتفعة أو حتى المنخفضة إن كانت مباغتةً تفقده توازنه إلى نوبة تبدو بأعراضها كأعراض الصرع، وعاف الماء ما استطاع عن بدنه وعروقه، فقد وجد تأثيراً إهلاسياً في صيامه الانتحاري هذا, قد يقربه مرة أخرى من جلاديه فيستجدي غفرانهم, وعتقه.

كان قد جنح عن الصواب بما لا يخفى على عين ناظر، يجوب الشوارع كعادته بصمت من دون أن يكترث لمحيطه, فلا يُسمع منه سوى حفيف خطاه الزاحفة وبعض التصويتات غير المفهومة التي ينشجها بصعوبةٍ من حلقه.

لكن ليلة قمره شهدت حادثاً ميّزها من غيرها, إذ إنه بدأ جولته الاعتيادية بصمت لينهيها بإنشاد قطعٍ مفرقةٍ لواقعةٍ كانت على ما يبدو تجري في كيانه:

أنا شهيدُ العمر. أنا شهيد الوقت
أحمل بلاطة قبري على ظهري, بما اقترفت
خنت إرادتي, وانتصفت للهوى
ليس في قدمَيَّ علة, لكنكم لا ترون الأغلال
على ضريح آلهة الزمن, ضحيّت بإرادتي. وكانت تلك غوايتي لا هداي.
لا, لا.. لا تكافؤك الحياة على نياتك البطولية, ولا على المبادرات الملحمية
ليس ذاك إلّا وهماً مسرحيّاً، لا تصفيق ولا قبلات
بل قتيل، بل قتيلٌ ليس إلّا.
ثم آب مجدداً بعد هذا إلى رطنه الذي داوم عليه قبل أن ينفلت بنشيده المفكك, واهتدى والقمر مازال في منزلٍ متوسط من السماء إلى داره. ولج إلى الداخل وخلع حذاءه بشكل آلي, ثم ولخاطرة طائشة في عقله كشواشٍ طارئ, رفع إحدى فردتي حذائه ليصفّها بجوار الأخرى حين انبجس نورٌ من داخلها, وكمسحة وحي ملائكيّة, انتشلته من دهاليز جحيمه إلى مصافٍّ وعيه، أحس نفسه للحظة نبيّاً يُلقى إليه برسالة سماوية ألهمته صلاة يتضرع بها إلى خلوده, ويكفّر بها عن مثالبه: "كن أنت أنت, وليكن ما يكون.
بالطبع كان يذكر في ختام روايته لتلك الحادثة, حتى يمحص دعوته إلى هذا الخلاص من كل اتهامات التجديف, إدراكه أنه قد رفع بغير قصد حذاءه المثقوب أمام نافذة مطلة على ضوء القمر ليعبر منها. لكن المعجزة كانت قد وقعت على أي حال، وتلك هي الحقيقة.
ضحك آدابار حين أنهى الشاعر قصته, وأطرى الآخر على ضحكه ببعض قهقهات غير مصطنعة، وإنما متدبرة إلى أقصر حدودها.
- وهكذا برأ الرجل من الفناء (أردف آدابار بنبرة ختامية).
كانا قد وصلا خلال مشيهما إلى صومعة لم يرَها الوافد الجديد من قبل.
- تماماً، هذا هو المقصد (أجاب الفيلسوف مبتسماً).
بدت بعض علامات الاستغراب على وجه المستمع وكأنّما يريد أن يتسائل:

"حقّاً؟", لكن القاصّ الحكيم تجاهلها بلطف لبضع لحظات أراد خلالها أن يفتح باب الصومعة، ثم استطرد:
- لكل داءٍ دواء, إلّا الموت له رقية؛ الشغف البنّاء يا بني.

-٦
امتدت بشكل مهيب أمام ناظريهما مئات, أو ربما آلاف الساعات المعلقة، لم تكن جميعها تعمل, بل كان يبدو أنَّ أيّاً منها لم يكن يعمل، وإلّا لكان قد أصيب كلاهما بالصمم على الفور من جرّاء دقاتها.
- إنها ضريح عمري ومرثيّته (صرّح الشاعر)، هناك ساعة واحدة على الأقل متوقفة عن العمل، تمثّل كل سنة قضيتها على هذه الأرض (تابع شرحه, ثم مشى يتقدّم آدابار, الذي حمل في ملامحه الآن علامات الدهشة والانبهار حتى إنه لم يلاحظ أن جميع الساعات كانت مرتبة بشكل متعمد لتتجه جميعها إلى نقطة واحدة)، أردت التصالح مع ما مات من نفسي، بأن أؤبن ذلك الجزء الذي لا يُسترد بطقوس تليق بالأزل والخلود معاً.
أَعشت كل هذه السنين؟ (سأل التلميذ باستفسار).
ضحك ولفظ عبر أسنانه:
- من يدري، لكنه أمرٌ غير محتمل.
ثم أبدى على وجهه انطباعاتٍ أكثر جدية:
- هناك لحظاتٌ عديدة في العمر تستحق مراسم دفنٍ جنائزية خاصة.
تابعا التقدم حتى وصلا إلى ما يمكن أن يكون مركز الضريح, والشطر الآخر من قصيدة السنين خاصته.
- هذه هي الوحيدة التي تعمل، وحين تنقضي السنة سأوقفها هي أيضاً وأشيعها إلى مثوًى غير هذا, لأستبدلها بأخرى. (أخذ نفساً عميقاً ثم أكمل) إن هذا النوع من الطقوس ينضوي تحت ذاك النوع من الشغف الذي ذكرته قبل هنيهة، أي البنّاء, وهو هنا, ولأتوخى ما استطعت من الدقة المنهجية,

ترميميّ. إن إنجازاً كهذا يخوّلني أن أضع الأمور في نصابها الصحيح.
- وأيّ نصابٍ تعني؟ (سأل آدابار وهو لايزال تحت وقع الانطباع الأول الانبهاري الذي صاحبه منذ خطوه إلى داخل العالم الآخر للشاعر).
قهقهة خفيفة أفلتت من المجيب:
- لقد اخترت هذه الكلمة عامّة الشمولية, حتى لا يكون علي استخدام كلمات اصطلاحية ذات تحيّزات فلسفية. كل ما عنيته هو أن هذه السيرورة الشعرية تجلبك أقرب لأن تكون ذاتك, حتى وإن لم تفهمها. لكن دعني آخذ بعض الوقت لأشرح لك أمراً لا أظنه قد فات بديهتك، لكنك لم تؤبْ بعد إلى سجيتك لتسائله، أو أن سؤالك كان شركاً فكرياً من نوعٍ ما حين أردتني أن أبيّن نصاب ذاك الشغف البنّاء. (ابتسم الراهب) لا تقلق, لا تنظر إلي هكذا، أنا أمازحك فقط، أعلم أن نصب الفِخاخ ليس من طبيعتك. المهم, إن ما أردت تبيانه هو الفرق بين بنّاء ومنتج؛ حيث إني لم أرد بحال من الأحوال أن تخلط بينهما, وإن كان ولا بد من تقاطعات عملية بين الاثنين، فكلتا السيرورتين تسعى لخلق قيمة أو للاستزادة منها، لكن في الأولى ليس هناك بالضرورة منتج نهائيّ محدد أو منتهٍ, بل هي السيرورة في نفسها وقيمتها في كليتها؛ أمّا في الأخرى, أي الإنتاجيّة، فالمآرب أكثر تحديداً والقيمة أكثر اقتصاراً على المنتج النهائيّ, مما يجعلها قيمة استهلاكية.
- ألا يكون الفن إذاً, والحال كذلك, استهلاكياً؟
- قد أبهجتْني ملاحظتُك وأكدت لي فطنتك، وإن لم أكن شاكّاً بها. العمل الفنّي هو سيرورة كاملةٌ مختصرةٌ بتجلٍّ مادّي، كما أن تسامي طريقة تناول قيمة العمل الفنيّ وإعادة تدويرها ومناعتها ضد الزوال هو ما يفرقها عن سائر تلك القيم الاستهلاكية.
- إذاً, فحسمُ تحديد الفرق بين هذا وذاك يقع على عاتق كيفية التناول بطرفيها.
قال آدابار هازّاً رأسه مؤكداً فهمه لمقصد الشرح, دون أن يحيد بناظريه عن

مومياوات الزمن, وأردف مداعباً:
- أليس ثمّة قافية في قصيدتك؟
- بلى, لكنها ليست من النوع السمعيّ.
أجاب الشاعر بانشراح صدر فيما يبدو لفكرة قد قامت في عقله:
- ألا يشعرك هذا الضريح أن الزمن مولود ويحتضر كذلك؟ بل دعني أتجرّأ على أن أعبّر عن فكرة أكثر تعجرفاً واستصغاراً للوقت، إنه هو من يموت, أما نحن فنعرج خارجه، لسنا علته, لكننا على الرغم من ذلك روحه، فإن انفضضنا عنه عاد إلى نعشه القضيض دائب الحركة. نعم, قد خُلق التاريخ في نفس اللحظة التي وُجدنا بها؛ إنها مفارقة الوعي, أقولها دونما نرجسية منّي, ولا تواضع مصطنعٍ أيضاً، لكنها ما كان.
أيّد آدابار هذه الخاطرة الشعرية حال سماعها, إلّا أنه لم يصرح بذلك مباشرةً، فلا تفهم سرعة حسمه قلّة تدبّر, فإن أجاب بالنفي فسيكون لجوابه وقع التمرّد، وإن كان ردُّه إيجاباً فسيكون له وقع التزلّف. وحين أرهصت لحظة قدّرها ملائمةً لرفد حكمه بالكلمات أراد أن يقول: "بلى"، لكن ما خرج من فيه كان: "ربّما", وإنّما مع نبرة فيها تغليبٌ للإقرار بخاطرة الشاعر. أدهشه هذا لوهلة, وليست مخاتلة الأصوات على اللسان ما كان مفاجئاً، وإنّما شعوره بصدق ما نطق محتوًى وطريقة, حتّى إنه كررها مرةً أخرى ليظهر استرضاءه لتلك الإجابة: "ربّما".
الآن, عزيزي القارئ، أرجوك أن تمنحني عدة أسطر من انتباهك, لأؤكّد أهمية هذه اللحظة كحدث فكري وروحي في مسيرة البحث الشخصي لآدابار، أو ربّما حتى كحدثٍ تاريخي لوطأتها المحسوسة على رسالته. قد يقول قائلٌ إنه من نافل القصّ التركيز على ما قد لا ينطوي على أكثر من تردد مفهوم وزلات لسان مع بعض التصنع، أو إن ما أفعله الآن من شرح ليس إلّا زخرفة أدبية, وتخليقاً لمعانٍ واهية. ولا أنكر أحقيّة هذه الاعتراضات وعقلانيتها, لكن ما يرفع فعلي فوق هذه الشبه هو واقعة اعترافه بأهميّة هذه اللحظة شخصيّاً,

وذكره لها بتفاصيلها بشكل من الخشوع. وأجد، وفي هذا الأمر وحده, مستقلّاً عن أيّ سببٍ آخر, مَدعًى حقيقاً للبحث وجديراً بالتأمّل والاستبطان. أمّا وقد تجاوزنا جزء التبرير, فلي أن أبدأ بذكر انطباعي عن ذاك الحدث, وهو أنه تجلٍّ بشري. وهذا هو الانطباع الذي يتملكني حين يكون عقلي أميل للموضوعية. وأعني بهذا المصطلح أن أبعاداً ومرادفات إنسانية قد تكشّفت في ذاته على نحو مُلهم. وإذ لم تكن في تلك اللحظة على التعيين عناصر خاصّة يمكن بها تعليل الخلاصة النفسية التي وصل إليها حين قنع بتلك الـ "ربّما", ولم تكن لحظة ذات سياق توجيهي في خصال البشر، على العكس فقد كانت إلى حدٍّ ما فوقية ومتعالية، فقد آثرت أن أدعوها بـ "تجلٍّ". نعم, هي تعثّر غير مخطط بدخائل لم يكن يبحث عنها على وجه التحديد. نتيجة فرعية, غير متوقعة لجهدٍ هادف باتجاه آخر. ومع ذلك هي قيمٌ حتميّة يولدها الشغف البنّاء، وهذا هو تماماً ما قد يجعل تفويت أهميتها سهلاً وبريئاً من أيّ إصر حتى على أشد العقول رهافة. أما في أشد لحظاتي حماسة, فإنّي أرى تلك اللحظة كمُتفرّدة خلق شخصية، إذ إنه وصل إلى قناعتين في الوقت نفسه دون أن يسبب هذا تناحراً نفسيّاً في داخله, بل على العكس أشعره الأمر بالارتياح والطمأنينة. كما أنّه علينا ألّا ننسى لحظة الصمت المقصودة التي كانت غايتها مراعاة شعور الآخر وعدم تخييب أمله في شخصه، وهذا بعدٌ إنسانيّ لم يكن يملكه قبل الآن, أو على الأقل كان حياديّ الوجود, باطنيّ الأثر.

-٧

نكص الرفيقان على أعقابهما عائدين إلى الصومعة، كلٌّ واحدٍ منهما ملهمٌ بوحيٍ مختلفِ الفكرة, شبيه الخفّة على النفس. كان آدابار يتوقف بين الحين والآخر ليأخذ نفَساً عميقاً, مُغمض العينين, مصيخ السمع.

- "خنت إرادتي, وانتصرت للهوى" (ردد آدابار بتمهّل تمهيديّ خلال إحدى وقفاته السارحة)، أيّ هوًى عنى؟ قد دار هذا السؤال في خلدي حين تلوت

قصيدتك، لكني لم أرد أن أظلل الكليّة بأطيافِ التفاصيل, فيحجب بعضها بعضاً عن فاهمتي.

- قد عنى, عنيتُ ذاك الفضاء سحيق المرضِ الذي نهوي إليه, حين تفقد يدانا عزيمتهما في المضي قدماً إلى الأعلى، والذي يتّهم الإرادة بكونها نزوة طيش؛ هي ملاذ الانهزاميين الذين قنعوا بالواقع الثابت, بقسمة الضعفاء, أولئك الذين تخلوا عن مُثُلهم وبتروا شغفهم إلى درك الراحة، واستكانوا لها. والخوف وليّ الهوى, أو حتّى محرّكه ولبّه الأساسيّ. لا تستصغرنّ شدّة الاستسلام، فقد تكون ماحقةً لما حولها, مدافعةً بكل كيانها عن ذاك الخوف, فهم, أي معتنقو ذاك الخوف, على حين غرّة مغاوير لجبنهم ولهواهم (شرح العالم بكلمات قاسية لم تفقده مزاجه الحسن).

- أحدس في تصريحك ما يشير إلى شخصيّة تجربتك, فهل في تخميني هذا شيءٌ من الصحة؟ (سأل آدابار بتحرّج مستتر).

- أليس كلّ ما يُقال إعادة تأويل للتجربة؟! أوَلا تكون زرقة السماء في الشتاء تأويلاً متحرِّراً للون والذاكرة، ومثل ذاك العبرة للواقعة، القصيدة للحال، القدر للمصادفة, والروح للحركة؟ أم إنَّ الحق في عكس هذا؟ (أشاح الناسك بعيداً بوجهٍ صافي الأسارير) ولكن حدسك لم يخطئ تكهن شغفي الخاص في المسألة, وارتباطها بألمٍ وجودي العلَّة دائمها, عرضي المُحضّض, بعيده؛ إذ إن هذا حصل قبل زمنٍ كانَ كفيلاً بجعلي أنسى أسماء شخصيات الحادثة, دون أن يكون قميناً بأنْ يجحدني بمثلي السامي الذي أؤمن به حق كياني؛ ألا وهو الحب. وأعني بهذا الحبّ الشامل منه, لكن قصتي تقتصر على العشقيّ. نعم يا صديقي, لا تضحكنّ عليّ ولا تهزأنّ من شيخوختي.

قال ممازحاً لا غير, وليس لبادرة تنمُّ على سخرية من المستمع:

- كنت فقيراً حينها, لكن لست بمعوِز, كان هذا ما ظننته على الأقل, حتّى تبدّى لي عوزي الحقيقي حين أدّت طرق المصير بنا, أنا ومعشوقتي, إلى ضفتين بعيدتين من ضفاف العالم. ظننت أن الكون يختبر ذاك الحب فيباركه

بالأبديّة في نهاية ما سيمليه عليّ من مصاعب وآلام. كانت تلك الفكرة هي عقيدتي التي حسمت أمري عليها, وحزمت أحمالي البسيطة أسافر بها عبر الأصقاع فاستعضت بشكيمتي عن انعدام مالي, وبتجلدي عن انعدام امتيازاتي الاجتماعية، عبرت صحاريَ شاسعة قاسية على من يأهلها من كائنات, قاتلةً غير شفوقة على الغرباء، صعدت جبالاً وهبطت وديااناً شقّت على أطرافي وأنفاسي ببرودتها وشُهوقها، مخرت بحاراً معتلجة الموج شرهة لازدراد المستغيثين بها من اليابسة، وحين وصلت هناك بقوًى جسدية متهالكة, وإيمانٍ بالحب لم يردعه وهن، لم تكن بانتظاري؛ غفرت لها قنوطها, فالرحلة كانت تبدو مستحيلة وتأبيناً فخوراً لشخص اختار الموت. لكنها سايرت شغفي الملحميّ في جهده, وعادت فبادلتني الحب مرّة أخرى, إلى حينٍ على الأقل، حتى بات عليها بدورها أن تتجاوز بضع عوائق اجتماعية وماليّة. كانت تلك ساقية لم ترد أن تبتلّ قدماها ولو قليلاً حين تعبرها، فاستسلمت لدَركَة الهوى, وجعلت إرادتها من إرادة السقوط, وأنت تعلم أيّ قوّة في هذا. عادت إلى وثارة المجتمع وسهولة الانجرار. حين أخبرتني بقرارها ذاك لم أتوقف عن حبّها عندئذٍ, بل ولا أظنني توقفت عن ذاك أبداً, لكنّي فقدت إيماني بها من فوره,لم أحاول أن أثنيها عن ذاك القرار بكلمة, فلا إرادة قادرة على بعث الأموات, وما كان لي إلّا أن أشيعها إلى هواها دنيء المسعى, واقعيّ ومفهوم السهولة بكلمات طيبة, وعبرات مُؤبّنة لا اصطناع فيها. ولم يبقَ لي من ذاك سوى ألمٍ عزيز لا ينوي مفارقتي, ولا أنوي عتقه (صمت الشاعر عن صوته بادي الحزن للحظة)، مازحتها يوماً بكلماتٍ مبتذلة آثرتها على الفصاحة, وألمٍ حق, فتساءلت أمامها: "كيف يكون الوجع في الصدر حين يكون الطعن في الظهر؟!"، ما أشد ابتذالي وصدق مشاعري حين لفظت تلك الكلمات. ولم أعنِ في هذا اتهامها تعمّد وترصّد قتلي, فكنت لأمجد إرادتها لو أنها فعلت ذاك عن عزم وليس عن انهزام واتّباع, بل أردت أن أدين ذاك القطيع مجترّ المادة التي فضلت أن تكلأ معه, على أن تكافح وتألم لحينٍ ثم تسمو معي فوق تيّار الآخرين ومشيئتهم

القطيعيّة. وهكذا انتهت علاقة الوَجد بشهيدٍ للشغف, وقتيلةٍ للهوى.
- أوَتكون عزلتك هذه افتداءً لتلك القتيلة, أو ربّما ثأراً مبيّتاً لذاك الشهيد؟ (تساءل آدابار متأمّلاً محدّثه بوداعة).
ضحك الشاعر ملء فمه:
- كلّ ما أردته هو أن أكون حرّ القلب والسجية, وتلك هي فضيلة هذا المكان. في معتزلي هذا, وعلى خلاف ذاك الذي انسحبت منه, الحريّة تكون تبعاً للخيار والإرادة, وليست تقليعةً واهية لتسويغ شتّى أنواع الانحدار. هنا كل شيءٍ مباح ما دام خليق الألم. خليق الجهد والعزيمة. وهناك ما هو مباح هو كلّ شيء. فهي حريّة مفروضة مُجبرة قطيعية, هي دوماً كذلك بغضّ النظر عن أي اتجاه تنجرف وأي فكرٍ ومُثُلٍ تدّعي. إنّما أنا أقسو عليهم, لأنّي أحبّهم وأشفق عليهم، مثلما تشفق عليهم أنت الآن, وستحبهم لاحقاً. هذه نبوءتي لك. لقد اعتزلتهم لأني أريد حقّاً أن أكون معهم, لا ضدهم. خرجت عنهم ليلتئم شملي بهم. إنها معيّةٌ فوق المعيّة الماديّة. قد أَلغزت على نفسي تلك الإنسانية. أتوق لروحها, أحب أفرادها وأنفر من جماعاتها. ما أصعب قرارك من قرار!.
توجّس آدابار زلّة في تركيزه حالت دون فهم ذاك التصريح الأخير, إلى أن حسم نفسه ليسأل:
- إلى أيّ قرارٍ تشير؟
- لا تستعجل علماً لم تكتمل أسبابه بعد، (أجاب بهدوء أبدى ما يحاول كبته من همّ أو ربّما تأثر بذكرى ما سرده من خبره).
- حسناً, سأسلّم بمشيئتك في هذا الصدد .
قالها ببعض المرح محاولاً التخفيف عن قرينه:
- لكن قل لي أرجوك, لمَ آثرت ابتذال السجع حين واجهتها بما شعرت به من غدر, وأنت قادرٌ على ما هو أبلغ منه؟ (ارتسمت الآن ابتسامة على وجه كليهما على أثر السؤال الساخر ممازحةً من غير خبث).

- لا يفوت فطنتك شيء, أليس كذلك؟! لم أكن أريدها ركيكةً هكذا, لكن أصالة الصورة في ذاتي خدعتني لأتسرّع بالتعبير عنها كلامياً دون غربالٍ لغويّ. وعلى ما يبدو كانت سليقتي الشعرية منشغلةً بنسجٍ ملحميّ يرقّي ألمي فوق العوام, فكان ارتجالي متلعثماً كما سمعت. ربّما لو تفكّرت حينها للحظات لكانت كلماتي شيئاً من قبيل: "آه أيّ فوضى تلك التي باعدت بين المَطعن والمَألم, وأيّ شتاتٍ خلع الوجع عن موضع النزيف المُغيّب عن عيني, وبعثه متلوياً متوحّشاً هنا في أحشائي؟".
- ربّما كان هذا ليكون أجدى (علّق آدابار ضاحكاً ثم استرسل مقترحاً) أو ربما "أي شرّ أرغم قلبي على تلبّس ألمٍ حلّت أسباب انبجاسه, هنا ها هنا, نعم في مطعنٍ في الخلف" (هتف قوله وهو يحاول الوصول بكفه إلى أقصى نقطة تتيح له ذراعه الوصول إليها على ظهره).
ضحك الآخر من البداهة المسرحيّة الفكهة لآدابار وهو يحاول شدّ رتيمة لفكرة ما في ذهنه ودّ لو يذكرها لاحقاً له.

-٨

مال آدابار في نهاية جولتهما على جذع شجرة مفرطة في ضخامتها, بينما جلس الآخر على نديّ العشب مسنداً ظهره إليها. أطرق كلٌّ منهما سارحاً في عقله ونتائجه، مطمئناً لوجود مؤنسٍ فكريّ في حضرته مستعدٍّ للتنازل عن خصوصيّة خواطره وإغراقه في ذاته ليجد تقاطعاً تنويرياً ما مع صاحبه إذا اقتضى الأمر.
- بقوّة كلمة, حدث كلّ شيءٍ في ذاتٍ ما, فبدأ الزمان والمكان (هتف الناسك بصوتٍ وقور).
- أأسطورة خلقٍ مقدسة هي ما أردت الإشارة إليه؟ (سأل آدابار ومازال في عينيه أثر حلم).
- ليس تماماً، لكن على الرغم من هذا فإن لما تعنيه تلك الكلمات قداسة مستقرّة في كياني. إن ما أرمي إليه بها تجلٍّ للقدرة في عدمها، خروجٌ عن التجربة

الذاتيّة إلى التجربة الفرديّة الجماعية, وكيف للفن بأشكاله أن يحوّل جموعنا إلى وسيط روحيّ ينقل أعمق تجاربنا العاطفية والفكريّة دون أن يجبرنا بلزام التجربة الحسيّة، فتستطيع الكلماتُ الأخيرة لرجلٍ مات في الطاعون منذ ألف سنة أن تبعث السقم في نفسي, وتؤرقني لياليَ, أو هموم العزلة والاندثار لرسّامٍ هرم, أراها في أحد إبداعاته تصوّر جملاً مستسلماً بقوائمه المنتصبة إلى السماء, بينما تبتلعه الرمال المتحركة, فيستشعر المرءُ حيرة الفنّان تلك: أَيَئِدُني النسيان قبل موتي؟ وترى اليأس والأمل, في قرع الطبول ورقصات المطر. كلّنا أنا, دون أن أفقد أناي, ودون أن تفقد أناي تفرّدها. قد انحط في آونتنا هذا الإطراق للتشابك إلى خارج الفنّ, إلى انتهاك الخصوصيّات الشخصيّة, والتعسّف في حقوق التشهير. دنا في تحوّله ذاك إلى الحسيّة البهيمية, والشهوانيّة المباشرة التي ما تنفك تجعل البشر متضوّرين للمزيد، جعلتهم يُعلون الوطء على ممارسة الحب، الالتهام على اللمج، عبادة الحرف على تقديس الروح، الخوف من جحيمٍ ماديّ ما على حب الحياة. وهبتهم حياة وكيلةً لحيوات الغير, بدل حياةٍ تفرديةٍ حقة (قالها بحماسة لم تخرجه عن إيقاعه الهادئ. خطب كلماته تلك دفعة واحدة ثم عاد لصمته).

- تعاضدٌ انفعالي غير منحازٍ للذات إذاً هو الفن، كشعوذة الأوّلين الساعية لاستدعاء أرواح بلا أجساد, فتتلبسنا بطوعنا غير سائلين منها سوى البوح بمكنوناتها وبواطنها, فلا أثر من ذاتنا إلّا فيما لا بد أن يرشح منها إلى التأويل البَعديّ للتجربة (رفد آدابار رأي الآخر).

- في أعماق كلٍّ منّا جزءٌ قاسٍ ممانع للتغيير, لكنّه عادلٌ وحتميّ بوجوده؛ بشكل أو بآخر هو علّة وجودنا كذوات شبه حرّة، لكن حجمه وطريقة تموضعه في بحر التجارب البشريّة يحكمان إمكانيّاته التشاعريّة؛ فقد يكون جرفاً تتحطم عليه الصرخات والضحكات دونما أثرٍ يُذكر, إلّا كندوب بلا قصّة, أو أصلٍ نازف، وقد يختفي ذاك الجزء منّا كآثارٍ مندثرة، حينها نحزن ونضحك فقط كجزء من الـ (نحن) فلا يكون الأمر مصحوباً بالتشاعر، بل بما هو أقرب

لعدوى التثاؤب أو شيءٍ من التناسخ الحاد، ويكون ذاك الجزء منّا في خير حالاته حين يكون واضحاً فوق بحر الذوات الأخرى, ومتماهياً في شطآنه معها؛ فهو يقرّ كل التجارب البشريّة, دون أن ينكر نفسه.
أنهى الراهب سلسلة أفكارهما التعشيقيّة فيما يبدو كخلاصةٍ مناسبة لكليهما، ثمّ لاذا بالصمّت مجدّداً, وداوما على هذه الحال التأمليّة إلى أن بدأا بتناول عشائهما في الصومعة, فلا هما يجبران حرفاً خارج فيهما ولا داخلهما. لم يكن صمتاً مترنحاً، بل مسالماً وكافياً.

-٩

بدأ الحديث بعد أن استردا طاقتهما بالطعام, وقد تذكر الشاعر رُتمته الذهنية:
- قد سهوت عن ذكر أمرٍ سلف أوانه عند حديثنا عن الهوى, أو ربّما آثرت تأجيله حتى تركد أنفسنا عما اعتمل بها من لجُج.
نظر إليه آدابار دون أن يقاطعه, وإنما أومأ برأسه دالاً على إصغائه.
- علينا إن أردنا للإرادة أن تسود على الهوى أن نَميز بين منغّصين: القضاضة والألم. أمّا الأول, فهو وليّ الهوى, هو ذاك الجزء منّا الذي تدركه الجاذبية وتستدرجه إلى السقوط, إنه البديل المقيت المدلّع للألم لدى الضعفاء والمتكاسلين, يبقيهم ملتصقين بدركاتهم الدنيّة، متباركين ومتغنين بالراحة والواقعيّة؛ إنّه حارسٌ على بوابة هلاكهم, يردهم إليه كلما حاولوا الفرار منه. ليست القضاضة سوى غَنج الاستسلام والانكفاء على دروب قطيعيّة فانية، وكذلك الوارث المحنّك الخبيث للإيمان بالمعجزات في مطالبتها بالحلول الخاطفة السريعة. أما الألم, فهو رفيق الصعود والتسامي وبوابتنا إلى الأزل، يذكّرك دوماً بذاتك الحقّة, ويحثك على غاياتها, وينهاك عن التمرّغ في لذّة الارتياح وعفنه.
- فلينتصر إذاً الألم لنا وعلينا (هتف آدابار بشموخ وعزيمة ترقرقت في صوته).
نظر الراهب إلى آدابار بفخر المعلّم:
- أيخالجك وسن, أم ندلج مجدداً؟ فمازال فيّ رغبة في التناجي.

- بل نستأنف أحاديثنا أجدى وأسرّ (أجاب بلا تردد وكأنما كان ينتظر هكذا عرض).
رذّت السماء, فجعلت قافيةً لمسيرهما كتفاً إلى كتف, يسمتان طريقهما بالحدس وما نفذ عبر الغيوم من ضياء هلال نحيل.
- أفي الهطول غير المتردد لحبات المطر معنًى بحد ذاته, أم أننا نسبغ أقدارنا عليه؟! (تساءل آدابار بصوتٍ مُسمِع).
- إن كنت تريد بهذا أن تفرّق بين الغاية والمنتهى, فقد أصبت التعبير. إن القدر قوّة جاذبة في نهاية كل الدروب، سنّة كونية قانونية, تغري بأن نخلطها مع مغزى الحياة. هكذا أقرن إدراكنا للحتف, النهاية بالاستمرارية، استمرارية مستقاة من معنًى بعديّ. وما أعنيه ببعدي ليس بعد الموت فقط, بل هو دوماً بعد الآن أو فوق الـ (هنا).
- في كلّ لحظةٍ أبديّة, وفي أيّ شيء كل شيء (هتف صوتٌ تردّد في أصقاع الذات والجزيرة).
جفل آدابار وتلفت حوله باهتياج، فهرع إليه الحكيم واضعاً يده على كتفه مطمئناً:
- لا تقلق، إنّه الصدى، إنه رجوع ما يجول في ذواتنا إلينا.
هدأ آدابار شيئاً فشيئاً حتى تمالك نفسه بالكامل:
- قد ذكرت لي مرّة شيئاً عن الصدى، لكنّي احتسبته مجازاً على شعريّتك، (صمت لحظةً ثم استطرد) فكيف لم أسمعه قبلاً؟
- قد سمعته. قد سمعته في صوتي, وفي صوتك. في حفيف الشجر وخرير النهر وتلاطم الأمواج. أمّا إن كان سؤالك لمَ سمعته هذه المرّة بهذه الطريقة التنزيليّة بالذّات، فللجزيرة خواصها التي تختلف باختلاف موقعنا منها, ومقدار تناغم الأفكار مع تلك المواقع، تدارسْ صدى الذات على هذه الجزيرة كما قد تتدارس وتألّب في عقلك لحظة عبقريّة مباغتة، فعلى الرغم من أنّها تأتي من نفسك, فأنت لا تدري من أين تماماً ولا لمَ في تلك اللحظة تحديداً،

كلّ ما عليك أن ترسل زخم فاكرتك وتجول في ذاتك. شغف بنّاء, يعود عليك بالاهتداء إلى جوهرك، كما يرسل الخفّاش ذبذباته لترتطم وتعود إليه حاملةً معالم الطريق.
أجاب الناسك ببطء كمن يحاول ترتيب فكرةٍ معقدة يحاول نظمها لأول مرة، ثم عاد يلهج بثقة العالم:
- لكنّ لتجلّي الصدى لك دلالة مهمّة على ما سيظهر لاحقاً من حقائق وأفعال.
صمت الناسك, ونظر إلى آدابار مشفقاً:
- ربّما علينا أخذ قسطٍ من الراحة الآن، فلنطهّر نفوسنا بالصمت, ونعد إلى صومعتنا.
أومأ آدابار برأسه, وقفلا عبر الليل عائدين.

-٠١
تقلّب آدابار بين الحلم والواقع، شاهد عوالم لم يدرِ إن كانت داخل نفسه أو خارجها. صوتٌ انتهى إلى خلده دون أن يتأكد إن كان قد عبر أذنيه: "استيقظ، فأمامك يومٌ طويل"... "أن نكون بأن نكون حقّاً".... "حدس متفوّق جديد".
فتح عينيه فجأة, وسأل دون أن يرى الناسك, إذ إنه أحس وجوده:
- أقلت شيئاً؟
جاءت الإجابة من خلف رأسه:
- نعم, قد قلت الكثير، أفتشير إلى شيءٍ معيّن؟ (هزّ آدابار رأسه يمنةً ويسرة دون أن يجيب).
- لا تهلع (عاد صوت الناسك من ورائه).
- من أيّ شيء أهلع؟ (رد الراقد باستغراب, ثمّ التفت ليقشعر جسده, ويقفز من فراشه دفعةً واحدة، ألجمته المفاجأة حتى غيّبت سيرورة الاستعراف بالسؤال، فما عاد يدري كيف يستفهم عن الحدث).
كان الناسك يجلس خلفه متربّعاً, وقد اختفى فمه تماماً، امّحى من وجهه من

غير سوء أو تلف.
- لا ترتعب، فهي ليست بعاهةٍ أصابتني، لكنك بتّ تسمعني دون حاجتي إليه، فقدّمته قرباناً للطبيعة واقتصاديّتها، والفنّ وتساميه.
اقترب آدابار من الشاعر, وجلس قبالته ببطء منعماً النظر في وجهه:
- كلّ شيءٍ مجاز، فلا يجفلنّك تغيّر الصورة (تردد صوته في ذهن آدابار) في السببيّة الماديّة، حين يغيب لزوم المعلول، يخفت فعل الإيجاد الواصل بين العلّة والأثر، فتضمر العلة حتّى تختفي بذاتها؛ فحين اختفى لزوم الكلام الشفويّ منّي اختفى مصدره.
سكن آدابار متفكّراً فيما قيل له، أراد فتح فاه لينطق، لكنّه قرر تجربة شيءٍ آخر، فسأل في نفسه:
- أوَهناك صنفٌ آخر من السببيّة؟
سمع الناسك ما لم تُصوّته حنجرة آدابار:
- هي الوحيدة التي نعيها، لكنّي خصصتها حتى أحول دون سوء فهمها، فالسببيّة تُستخدم في كثير من المواضع للاستدلال الخاطئ على وجود عللٍ فوق مادية أو عدم وجودها. لكن السببيّة من خصائص المادّة التجريبيّة، تبدأ بها وتنتهي بحدودها، فهي غير كافية للاستدلال على الصلة بين المادة والعدم منها إن وجد؛ فالصفر المطلق تجريدٌ لا تعترف به الطبيعة الكسريّة، فأثر أيّ فعلٍ في الصفر يساوي صفراً، فهو إذاً خارج مجال السببيّة الطبيعيّة. والإضافة المطلقة والسلب المطلق ليسا من خصائصها أيضاً، فهذه أو ذاك تعني زيادة المحصلة أو نقصانها، وهو مخالف للسببية الماديّة التي تعني التحوّل من شكل إلى آخر وثبات المحصّلة وإلّا لما استطعنا الاستدلال عليها من التجربة والملاحظة، فما نقص هنا زاد هناك؛ فلو أنّ الماء زاد في إناء دون إن ينقص في آخر إن سكبناه لما أدركنا الأثر السببيّ الكميّ، ولو أن فعلنا لم يزد في عملية السكب وينقص في أفعال أخرى لما استدللنا على الأثر الفعليّ.
قال:

- هذا يعني أن السببيّة الماديّة تلزمنا بصرامة بعدم تفسير أثر مادّي بعلّة فوق ماديّة.

سأل الآخر:

- هل تعتقد أن الوجود بجلّه مادّي؟

فأجاب الفيلسوف:

- هذا ما لا أستطيع أن أستدلّ إليه فأجيب عليه بحسم علمي، فالاستدلال على ذاك، أيّاً كانت النتيجة، هو خاطئ وتهافتيٌّ منطقيّاً, وإن كانت النتيجة صحيحةً من قبيل المصادفة.

صمت عقلاهما عن الكلمات، ثمّ سأل السائل مرّة أخرى: هل المادّة عزلاء من القوانين, خاضعة فقط لحقل قانونيّ تسري فيه، أمّ إنها تحمل قوانينها بذاتها؟

أجاب المجيب:

- قد تقلّب عقلي بين الكثير من الاستنتاجات, وسيداوم على هذا في أغلب الظن، لكن ما وقع عليه قلبي الآن من إجابةٍ هو أن أقول لك إن للمادّة خصائص غير خاملة, وللفضاء المحتوي قوانين فاعلة؛ فالمادّة صمّاء دون تلك القوانين، والفضاء عبثيّ دون تلك الخصائص التفاعليّة لموضوعه. وأظن أنه ليس للمادّة سلطة على سنّ تلك القوانين، لكنّها ماهرة بالتلاعب بها؛ فبالحركة وعكس اتجاه الحركة استطاعت استثمار تلك القوانين ومضاعفتها لازدهارها الخاص. هذا حدسي الآني, أقوله لك لأروّي فضولك فقط.

كانت قد بدأت أذنا الناسك بالضمور حين لم يعد يحتاج لهما كي يستمع لمحدّثه. أوجل هذا آدابار بعض الشيء حين لَحِظه، لكن تلك المناجاة العقليّة كانت سلاماً على نفسه, فهدأ.

توجّه كلاهما إلى الباب دون دعوة من رفيقه, ليبدأا جولتهما التأمليّة.

-١١
أطل الاثنان من شاهقٍ على شرخ عظيم غائر في منتصف الجزيرة, لمّا يكن آدابار قد تنبّه له قبلاً.
- أيّ كارثةٍ تُراها قد ضربت هذه الجزيرة؟ (سأل آدابار بلسانٍ صامت مقطّباً حاجبيه, مشيراً إلى الشرخ).
- الوجود (أُجيب)، قد نضج هذا الشرخ ونما مع نمو الجزيرة, فلا يتيح لنا جهلنا بالتتالي إسدال تراتبيّة سببيّة عليهما، فكلاهما علّة ومعلول الآخر.
تأمّل آدابار في وجه الناسك معجباً بإجابته ثم قال ببعض الحزن وقد تنبّأ بما يلي:
- سأفتقد رؤيتك، وإن كنت أعلم أن حكمتك لن تفارقني.
- لا تقلق، ستراني بعين بصيرة الفنّ حيناً, والفلسفة والعلم حيناً آخر. ستراني من غير حجاب في ذاتك. وصلت مُصأصئ العيون, وسترحل جليّ البصيرة, ملتئم النفس، وقد بات ذاك أمراً ذا أجلٍ قريب (أجاب الشاعر وقد وضع يده على كتف آدابار).
- وأيّ أمارةٍ تعلّم ذاك الأجل؟ (استفهم آدابار, على الرغم من قدرته على تدبّر الإجابة بنفسه).
- حين أفرُغ من جسدي لصالح يقظتك. (أخذ من أنفه آخر نفَس قبل أن يختفي ذاك البروز من وجهه إلى الأبد) أنا حيٌّ بك الآن، قد قاربت تغريبة الهويّة وشتات ذاتك على الانتهاء. (توقفت الفكرة عن الانسدال ثم تابعت) ستغادر لتنضم إلى التغريبة الإنسانية للفرع الذي سقط عن الأصل حتّى أنكره.
تابعا مشيهما وتسلّقهما حتى بلغا سفحاً لطيف الانحناء سمقت فوقه شجرة عظيمة في أبعادها وخضرتها، تلمّسها آدابار بكلتا يديه حتى تردد في ذهنه: "كأنّها الطبيعة بأسرها".

استلقى كلاهما بجوار الشجرة. أجال الشاعر عينيه في كل الاتجاهات ثم أغمضهما مغتبطاً, ليختفيا كدأب أنفه, وأذنيه وفمه. سكن آدابار على العشب قليلاً, لكن شواغل نفسه لفظته إلى الوقوف دفعةً واحدة:

- سترافقني بصوتك إن أنا سرّيت عن نفسي بالتنزه واستكشاف هذا المكان، أليس كذلك؟

- بلى (انبثقت فكرةٌ في داخله).

فمشى مطمئناً برفقته ووحدته, حتّى أطل مرةً أخرى على ذاك الشرخ, فاقترب منه إلى أن وصل إلى جرفه، وما إن نظر إلى عمقه حتّى تزلزلت الأرض من تحت قدميه, واهتزت اهتزازاً قاسياً ألقاه أرضاً. تشبّث بصخورٍ ضخمةٍ بارزة كانت بجواره محاولاً الوقوف، لكن الاهتزازات استمرّت متزايدة بالقوّة، فلم يجد بدّاً من الانبطاح مجدّداً. أصاخ السمع, وإحدى أذنيه منطبقةٌ على التراب، تلاطم, زئير, حفيف, فحيح, حسيس, لظى، ثم هدير. إنها صُور رؤياه. كان الرعب قد بلغ من تركيزه مبلغه. أدرك أن الماء سيفيض على هذه الجزيرة قريباً. تدحرج بعيداً عن الشرخ، ثم أعاد الوقوف مترنحاً, يكبو وهو يركض عائداً إلى حيث ترك رفيقه. ناداه في كيانه:

- يا رفيقي، أيها الناسكُ الشاعر، أيها العالمُ الفيلسوف، يا أنت, يا أنا (بقي على هذا حتى وصل إلى الشجرة العظيمة وقد وجد أن جسد صاحبه قد اختفى).

- يا صوت نبيّ الذات (نادى بكامل كيانه) "أتركتني دفعةً واحدة".

ترك آدابار جسده ينهار بالقرب من الجذع. لم ترمش عيناه. أحسّ بالخيبة وقلّة الحيلة. اختفى السؤال كما الإجابة في نفسه, وهو يراقب الماء ينبثق بغزارةٍ من التربة. وكأن قلبه غار في العدم. راقب دون اكترث لحاله أو حال الجزيرة.

استوى فجأةً في مكانه لفكرة غامضةٍ وأنعم النظر حيث ترك صاحبه. حين أدرك أن عينيه مازالتا تنظران إليه, شعر بالعار من نفسه, وبالذنب لتركها تسقط إلى هواها وضعفها, دون مسؤوليّة أو رقابة من ذاته، فعبس, ثم ابتسم

لفهمه تلك الحكمة الصامتة.
وقف على قدميه، وأخذ ينظر في عيني الناسك حتى تشربتهما نفسه عن آخرهما، ثم نظر إلى السماء، وشعر ببعض الرعب، إذ أحس أن البحر يسقط عليه دفعة واحدة، كان يقترب ويقترب دون كابح أو لاجم.
تزايد خوفه من قوة الارتطام، لكن يداً ظهرت من العدم, تجلّ لصوت نبيّ الذات، واستقرت على كتف آدابار مطمئنةً, ثم دفعته بتؤدةٍ إلى أعلى.
- قد استيقظت فَاحْيَ (تردد في كيانه قبل أن يتلقفه جموح الطبيعة).

العبور الثاني: مزامير تكوينه

-١

كان قطرةَ ماءٍ أُلهمت صيرورةً جديدة. لم تكن ذاتاً بعد, لكن بات للحرارة والبرودة معنًى, وللقرب والبعد أيضاً, فكان النور والظلام. رأى الوجود صورته فيها, فلم ينحِّها عن طبيعته, فبقيت. كانت الإرادة الأولى حركةً شاقوليّةً نابعةً منها تخالف الفيزياء التتابعيّة للكون بانزياح بسيط, ولكنّه نوعيّ من دون أن تخالف نواميسه.

وبتلك الهندسة التفاوتيّة وُجدت الإرادة الثانية والثالثة, فتخلّقت لقطرة الماء إدراكات أخرى, وخيارات أخرى، حينها صارت خضراء تسعى للشمس, أو ذات زعانف تسعى في الماء, وتقترب من اليابسة, ثم تعود، ثم تقترب أكثر وتعود أقل، إلى أن باركت الطبيعة مثابرتها بأطراف صغيرة, تمنحها إرادة جديدة, وفضولاً جديداً تسعى إليه، فوق الصخور, تحت الأرض, فوق الشجر، فتتالت الإرادات وتجلّت حيواتٌ لا تُعدّ ولا تحصى. نفت الطبيعة الكثيرَ إلى فنائها غير المجدي وأبقت الكثير في حضرة الحياة.

كان قد أحاط ساقيه بذراعيه، ووضع رأسه بين ركبتيه, وهو يدور في ذاك البحر الهائج. فتح عينيه أخيراً, وأزال من بين أصابعه ما علق من هلام جرّاء رحلة مولده تلك, ثمّ فرد جسده, وقد سبحت من حوله كل كائنات الحياة, يصوّت كل منها بذبذبات نوعه. انتهى إلى مسامعه أيضاً صوت دبيب كائنات اليابسة, تحوم هي الأُخرى حوله, دون عائق حيويّ. أصوات أتت كدقّ الحديد بالحديد, وأخرى كقرع الطبول, أو غليان القدور, وهسيس النار.

-٢

لطمه حوتٌ عملاق بزعنفته الضخمة ليتأكد من يقظته, ثم استمرّ بالسباحة حوله.

- آدابار, يا وليد الطبيعة (تردد هذا الصوت في كامل كيانه) قم فاحكم بمن خان الحياة وحسبها سُخرة له ولذريّته فاستبدّ بمواردها ومذاهبها، وعاث في أرجائها دناسةً, لا يرفعها إلّا زواله. كان جزءاً منّا, فانقلب علينا وتنكّر لأصله، وضع اللجام على الطبيعة كافةً يحاول استعبادها, وإرضاخها لمآرب جنسه وشروره، تعسّف في خيرنا, وجحده، ثم اغتصبه.

أنت منّا, فاذهب واحمل ببركتنا لعنتنا عليهم. اذهب، فأنت صُورُنا ننفخ فيك خاتمتهم الأزليّة, إن أنت قضيت بها. ولا يكوننّ أساس عدلك الشفقة, بل الحقّ, فلئن ذهبت بهم جئنا بكائنات خيرٍ منهم لنا, ولبعضهم، فليست الطبيعة عقيمة عن الخلق, لكنهم عضلوها بعنجهيتهم وتقديسهم لذواتهم. يخمنون أنّهم قد أمسكوا بزمام الأمور, ولكن هيهات أن يكون ذلك حقّاً، لم يقبضوا إلّا على أذنابهم, فاغتبطوا بنصرهم واستمرّوا بدوارهم الهاذي حول أنفسهم.

انظر كيف تنقلب الحياة في جحيمهم على بطنها, وتطفو بلا روح على سطح العبث الخَلقيّ، أو تهوي من السماء هامدةً دون غاية تواري موتها ولاضروريّته. طبّعوا الروح بالمادّة حتّى باتت هي الأخرى توسعيّة, فاحتكرت كل شُعبةٍ شكليّة الروح, وزخرفات قداستها, ثم أعلنوا الموت على كلّ حيّ ينازعهم ادعاء الحقيقة لنفسه وشعبته.

قد ضلوا عن أنفسهم, وعنّا. تغريبتهم الإنسانيّة ليست إلّا تنكّراً لترابيّتهم, وتمسّكاً بسماويتهم الزائفة. قد كانوا منّا, ونحن الآن نلفظهم إلى تغريبتهم الأخيرة, وفرصتهم الأخيرة ليؤوبوا عن عقوقهم للأصل, للطبيعة.

ليس لنا أن نحرمهم من أن يكونوا ذواتهم, ومن أن يتّخذوا مكانتهم الحيويّة، ولا نريد انتقاماً, بل درءاً للنفس من شرّهم المديد. فإن لم يرعوا صورة الوجود فيهم, فعليهم أن يتنحّوا إلى الفناء, والتبدد. وإن كانوا بذرة موت بدل

أن يكونوا بذرة حياة فذلك إسهاب في تأكيد العدم اللانهائيّ, وتذييلٌ حقّ الاستغناء عنه.
انظر كيف استأثروا بالأرض لذريّتهم, وتركونا نعيش على فتات نهمهم. بتنا طفيليات على ما عافوه عن عجز أو غفلة. قد هادنّاهم, حتّى بات زوالنا وزوالهم قيد أنملة من قضاء, وأنت رسولنا إليهم لتخبرهم أن الهدنة على وشك أن تُفضّ.
- أيتها الطبيعة، يا موجدتي بهذا الجسد، لمَ لا يكون رأيك فيهم حكماً نافذاً عليهم؟ وما حاجة أن أكون قاضياً عليهم إن كان ذنبهم دامغاً لا براء منه؟
- آدابار؛ أنت منّا, وأنّسناك فصرت منهم, حتّى يكون العدل فينا وفيهم، فارحمهم, أو افتك بهم، وليكن حكمك خيراً للطبيعة والوجود. فإن لم يستطيعوا إن يأتوا بإنسانيّةٍ تفوقهم, أتينا نحن بها. فالوقت ليس بشيء أمام الوقت. أنا الوجود, وأنا الطبيعة بلانهائيّتها، أنا الشيء واللاشيء, أنبثق من نفسي وأنعدم فيها كما أشاء, وإلى ما أشاء.

-٣

- اذهب إليهم, هناك حيث يَتلوّون في أتون حقدهم, وكرههم, وغضبهم، ولامسؤوليّتهم. اذهب مُبَاركاً بالعبور إلى كلّ الأزمنة والأمكنة إلى كلّ العقول والقلوب, إلى كلّ العلل والعواقب. اذهب مباركاً بكينونة من لدنك تكنها كما تشاء. اذهب فانسج حكمك من الواقع والمجاز, فلا تكون المادّة عائقاً أمامه, ولا الشطح وبالاً عليه.
بدأت كائنات البحر تسبح بسرعة أكبر حوله, حتّى بات يشعر ببعض الدوار.
- طوبى لك في سفرك وترديك في جحيمهم. طوبى لحكمك أيّاً يكن. لكن اعلم أنك المحاكمة متجسّدة, وأدرك عواقب هذا الأمر في نفسك. اهبط إليهم واختبرهم في جوهرهم. اعبر حلقاتهم الواحدة تلو الأخرى, حتى تقابل أشدّهم شرّاً وغيّاً. ولا تكتفِ بأحيائهم, بل أيقظ موتاهم وأشهدهم على الوقائع إن

رأيت في هذا حاجة لغايتك. فلينطق كلّ شيءٍ, باسم الوجود, في حضرتك. ولن تستتر معرفة تنظر إليها, ولن يُخطئ لك حدس. قد بارك الكون مهمتك, وأرخى صرامة نواميسه أمامك. اذهب فكن!

حامت الكائنات حوله بسرعة متزايدة, حتّى خلقت دوامة عظيمة بدأ ينجذب بقوّة نحو مركزها في القاع, وبدأ دواره يطّرد مع تلك الحركة. "قد تلقفتني الجاذبيّة مرةً أخرى, لتلقيني إلى حتفهم"، هتف آدابار في عقله.

بدأ يحسّ بتبخّر المياه من حوله وتحوّلها إلى كُتلٍ من هواء باردٍ كثيف, لم يعد قادراً على احتمال وزنه فألقاه عنه. ومازال يتردّى ويتردّى حتى اصطدم وجهه بفرع شجرة ميتة ثم هوى على أرضٍ ترابيّة, متواضعة الخضرة.

أراد الوقوف على قدميه, إذ أدرك أنّه لم يُصب بسوء بالغ, لكنّ قدره كان قد أثقل كاهله, فقرر البقاء هامداً في مكانه, وأغمض عينيه. أحسّ بيدٍ تضغط على كتفه, خمّن أنها يد نبيّ الذات، فأسكنه هذا, وأرسله في رقادٍ عميق.

العبور الثالث: خلودٌ إلى القاع

-١

- أعترف لك أنّي رجل بسيط، بسيطٌ جِدّ البساطة. هات نبأ معجزة ما وسأصدقك غير مماحك، لكن لا تحتقرني ولا تسخر مّني لهذا، وإلا حقدت عليك ولو لمدّة. نعم, إن سيماك توحي بطيبة قلب صادقة، ولهذا سأخبرك, بل اسمح لي أن أقول سأنعم عليك (ضحك بافتعال) بثالوثي المقدّس. تظنني سمجاً أليس كذلك؟! فليكن! المهم, هل سمعت ببرهان باسكال؟ إنه ليس بأكثر من رياضياتٍ قصيرة النظر, أقسم لك؛ اسمعني, إنّه يفترض أن هناك احتمالين فقط: أن الإله الذي يؤمن به موجود, أو غير موجود، ثم يوزّع المخاطر على هاتين الفكرتين ويتجاهل احتمال وجود إله غير ذاك الذي يؤمن به، ثم يتجاهل غايات كلّ من تلك الآلهة وصفاتها. إنّ إيمانه إيمانٌ ساذج رقميّ ثنائيّ العد (جذل لفكرته تلك)، وأنا كذلك سأبقي في فلسفتي على اختزاله، وإنّما بأقلّ ادعائية. لن أهيب بإله معيّنٍ في ثالوثي, ولكن سأفترض احتمال وجود إله عقائبيّ ما، يحكم فيعاقب أو يرحم. ولهذا الإله إن أراد أن يكون أهلاً للحكم أن يكون تامّ المعرفة ومطلقها، فهو لا يستطيع فهم شرورنا ودوافعنا وعقائدنا الناتجة عن ضعفنا البشريّ فقط, بل تفهّمها كأنه بشري, كأنّ ذاك الألم ألمه, وذاك الإثم إثمه، فيستطيع أن يدافع عنه أمام نفسه والأشهاد بكل ما أوتي من علم وعاطفة, فيكسب قضيته. وهذا هو أصل رحمته, العلم الكليّ. وإن أراد تطهيرنا من دنس حياتنا الدنيا قبل أن يرسلنا إلى الأخرى, فكلّ ما عليه هو أن يمنحنا هذا العلم, أو على الأقل العلم الإنسانيّ الأرضي لحظة واحدة ودفعةً واحدة فيكون ذاك عقاباً وثواباً؛ أن نشعر بكل الأفراح والأتراح التي شعر بها كلّ إنسانٍ على هذه الأرض, بل وكلّ حيّ، بجوع ذبابة وتخمة ملك، بفراق شاعر لحبيبته, وخدر مختلٍ نفسيّ، بخوف القاتل والمقتول, المفترس والطريدة؛ كلّ هذا دفعةً واحدة, أبديّة لحظية، جحيم

ونعيم. أترى, إن هذا الإله هو الطرف الأول في عقيدتي احتمالية الطابع, وعنده لا يكون للفعل أيّ قيمة عمليّة، اللهم إلّا فيما يسببه من أذًى للآخرين، فهو أمرٌ يزيد حجم الجحيم اللحظي سالف الذكر. وأقول هذا من باب الحرص الأخلاقي على ما قد يحققه هكذا إيمان من نتائج, وبذلك تُنبذ كل الأفعال الطقوسية وتكون واهيةً في غاياتها وقيمتها. أمّا إن كان ذاك الإله منقوص المعرفة, فهذا يعني متفاوت القدرة معنا نحن معشر البشر, وقد يكون هذا بالسلب أو الإيجاب, وأخصّ بالذكر القدرة على استجلاب معرفة تليدة, ومشاعر مولّدة في كيانٍ غير كيانه. انظر, دعني هنا أقيم نفسي عتبةً حقيرةً لذاك العلم البشريّ؛ أنا, وبقدرتي المتواضعة على تفهّم أحوالنا وذواتنا, أستطيع أن أغفر لجميع البشر على مر العصور, وبما في ذلك من آذوني بشكلٍ شخصيّ، قد أستثني من هذا واحداً أو اثنين، ولا حاجة لهم حتّى لطلبها, المغفرة أعني، فأنا أهبها لهم هكذا من تلقاء نفسي. إذاً نعود إلى إلهنا ذاك الآن, فإن هو كان أعلم وخيراً منّي فسيغفر للجميع بلا استثناء، وإن كان شرّاً منّي فلربّما سيعاقب الجميع بلا استثناء. من يدري مدى شرّه حينها. وفي هكذا حال لا يمكن احتسابه سوى بشريّ مستبدٍ أقوى منّا، ويشرع لنا حينها مفاوضته ومقايضته, إرساء صفقةٍ ما أو التمرّد عليه وقتاله. وعند هذا الإله ستكون أفعالنا مبخوسة القيمة أيّاً كانت. ولا أرى عند هكذا مولًى نسبيّ الألوهيّة مانعاً من أن يزجّنا جميعاً في عذابه إن هو شاء. وأنا أرفض هذا الكائن مدّعي الألوهية قاضياً لي وعلى أفعالي, فهو غير أهلٍ لهكذا منصب. أما الاحتمال الثالث, فهو أنه لا يعقب هذه الحياة أخرى نحاكم بها على سابقتها، وأن العاقبة الحقّة تتجلى في هذه الحياة، في شعورنا في الذنب ومحاولة تصحيحه أو شعورنا بالفرح ومحاولة استدامته، وهذا الاحتمال هو ثالثة الأثافي في ثالوثي المقدّس، وها أنا ذا قد باركتك به من كل رجسٍ ديني وعبث طقوسي. اذهب, عش لنفسك وغيرك, فإن كانت لآلهتك حاجةٌ بك فلا حاجة لك أنت بها، وإن كانت مساعدتها لك رهينة صفقة شعائريّة ما, فكن اليد العليا في تلك الصفقة وفضّ

يدك وضعها بيد أخيك الإنسان يعضض بعضكم بعضاً، تستعينون بأنفسكم على جبروت المصائر والأقدار. ولأختم حديثي معك بخلاصة نزيهة, فإنّي أرجّح روحياً طرف الإله الرحيم, وفي بعض الأحيان يطغى طرف اللاعاقبيّة على فكري؛ أما الجبّار مدّعي الألوهية, فإنه فقط يغيظني ويثير حفيظتي، لكنّ إبقاءه واجبٌ من باب الأمانة الاحتمالية (توقف عن الكلام لوهلة, ليستجمع أفكاره، لكن ما خرج عنه كان ضحكة مجلجلة شابها اصطناع محسوس لم يؤثر في أصالتها, أو بالأحرى في أصالة فكرتها وتوقيتها)، لمَ لم توقفني عن هذري اللعين ذاك؟ أعلم أن لا قدرة لديك على الكلام الآن لكنك كنت لتستطيع فعل هذا بإيماءة من يدك، تشير لي هكذا (رفع كفّه) فأصمت من لحظتها, أمّ أنك تجد متعةً فيما أقول, أو ربّما حتى فائدة (قال بمكر) ولمَ لا؟! فقد أفادتني عقيدتي تلك شخصياً، إنّها ليست مجرد إسفافٍ أدبي نَمّقته لأباهي به أنداداً ثقافيين في تلك الصالونات البرجوازيّة، فأنا لا أرتادها إلّا من باب الكياسة، ولا أبوح هناك بسر روحيّ كهذا, ولا أفصح هناك إلّا عمّا تتطلّبه المسايسة، فكيف أفادني ما أسلفته لك؟! ببساطة منحني حرية الاجتهاد الأخلاقي، فأنا لم أحِد يوماً عن الأخلاق إلّا بالمعني العرفيّ, وأحياناً القانونيّ لتلك الكلمة، لكني في النهاية بقيت صادقاً مع إنسانيتي, بمكامن قوتها وضعفها، وأنا أجلّ ذاك الضعف بنفس إجلالي للقوة، فضعفي ذاك هو ما ينبغي أن تكون شاكراً له, فهو سبب جلبي إياك إلى منزلي, وإيوائي ورعايتي إياك , فأنا أنحاز لأولئك الذين يذكرونني بنفسي, أشراراً كانوا أم أخياراً. أعلم أنك لم تتفوه بكلمةٍ واحدة منذ... سنناقش تلك الـ(منذ) لاحقاً، لكني رأيت احتقاراً مألوفاً في عينيك حين حدجتني أول لقائنا، لم يكن احتقاراً شخصياً لي أنا, فأنت لا تعرفني, فيما أظن، لكنه كان احتقاراً لي أيّما كنت، مما يعني تعالياً عن العالم وتعاليمه، وهذا ما دفعني لأريك أنّي أُبطن تلك النظرة أيضاً, وما أجبرني أن أطلعك، وعلى وجه السرعة، أنّي مجدّف بكل شرائع عصرنا وتعاليمه, فما إن خرج الطبيب حتى انهمرت عليك بثالوثي ذاك (جلس على كرسي للحظات, ثم

عاد ليقف ويحوم حول سرير آدابار) انظر إليّ! هل تستطيع التخمين أن عمري فوق ستة عقود؟ بالتأكيد لا، وشبابي وقوتي هذان ليسا نتيجة كوني "مصطفًى جينياً" كما يحلو للمتماوتين وصفي ليبرروا تهدل أجسادهم، ولا أنكر بالتأكيد تهيئي الوراثي لديمومة صحتي, لكن هذا لا يعني أنّي لم أولد بعلل شكلية, بل لديّ من تلك العديد؛ بالطبع لم تشكّل عوائق جسدية لي, بل كانت كندوب لم تعش أيام عزّها (ضحك عند هذه الملاحظة)، إن جسدي هو تمثيل مادي لإرادتي في التفوق على أقراني, وأولئك الذين لم يروني صنواً لهم, ولمحوني بدونيّة, ودون إنعام؛ أما الآن فإن أعناقهم تتطاول للنظر إليّ ولإرثي. كانوا يتجاهلونني بسبب منبتي, أمّا الآن فهم يتغنون به, ويصفقون لتركتي الاجتماعية. أتظن أن دافعي في الصعود هو الحقد؟ بالتأكيد هو كذلك، ولمَ علي إنكار أمرٍ جليٍّ كهذا؟ لكن لا تستصغر هذا الشعور الوضيع, فهو تأويل عاطفيّ لانعدام العدل، هو انطباعي عن تفاوت كفتي الميزان, قبل أن تسعفني الكلمات والأفكار بتشذيبه وتنضيده ومن ثم ترقيته إلى دافعٍ حقيقي للإرادة (توقف عن السير كأنما واتته فكرة لم يتوقع مصادفتها) أتعلم ما كان ذاك الحقد تماماً؟ كان محاكاةً وتبنّياً طفولياً لذاك الشرخ العميق في الحقوق بين الناس في مجتمعي. وأنا لا أقول هو طفوليٌّ بمعنى أنه صبياني، بل ما عنيته هو براءته التابعة للاطوعيته؛ فمشاعري كانت هلاميّة وجذعيّة تمايزت بالشكل الذي يجعلني أكثر قدرة على النجاة في هذا العالم الذي ينسى الإنسان ويُعلي من قدر المواطن، وهي رتبة لم يكن ممكناً للقيط مثلي حيازتها آنذاك. نعم, لقد ترعرعت في ميتم على الرغم من أن أمّي كانت حيّة, على الأقل إلى أن بلغت الثامنة أو التاسعة من سنيّ عمري. كانت تزورني كمحسنةٍ غير مرغوبٍ بها. بالطبع كنت أعلم على وجه اليقين صلة قرابتي بها, كما كان يعلم الجميع أنها والدتي التي اضطرت للتخلي عنّي بسبب وضعها الاجتماعي كبغي. ولم يجرِ الأمر بتلك الطريقة الدرامية في القصص، بل كان كإجراء شبه بيرقراطي, وإنّما غير رسميّ. وبهذا الأمر فقد حرصت على أن يكون نبذها من

قبلي, لا العكس. أماه, كم أتوق لتقبيل يديك وقدميك على مرأًى من جميع أولئك الثاغين حاملي لواء الأخلاق القطيعية، يتشدقون بأقاويل هشّة كطبقة جليد صباحي, فيقولون إنها باعت جسدها؛ أترى معي ما أخسّ قولهم هذا وأمكره, يحاولون إسباغ ماديّة حقيرة على فعلها؛ بل هي قايضت بعض موارد ذاك الجسد من أجل أن تجد ما تسدّ به رمقها، ثم إنه لا سبيل لبيع ما لا تملك؛ إن هذه الآلة الاجتماعية/الاقتصادية هي ما يملكنا، فأيّ عملية تجاريّة نجريها تنتمي إليها, بل وحتميّة بما تمليه من أنظمة. آه, اغفري لي ولهم يا أمّاه! قد خذلت تلك المرأة الكريمة مرتين، بشكلٍ مباشرٍ مرّة وأخرى بشكل مجازيّ. أما أُوْلاهما فقد كانت حين كانت تعودني في الملجأ. في البداية كان يسرّني وجودها بالطبع، كنت أنتظر زياراتها الأسبوعية بحماس متزايد, لم أكن حينها أستطيع أن أعي أسباب انفصالنا, لكنّي كنت, وبحدسي الطفولي, أتفهم صرامة تلك الأسباب. كانت تغرقني بقبلاتها حين كنت أجلس في حضنها لتحكي لي قصصاً إعجازيّة, دينيّة وغير دينيّة، ولهذا السبب في الغالب كان إيماني العميق بالمعجزات إلهماً شخصيّاً لي. لا تسئْ فهمي, فأنا لست بشخص كسولٍ متواكلٍ على التطيّر, فإن إيماني بها ليس إيماناً نفعيّاً، بل هو إيمانٌ خيالي؛ إنها كغيومٍ ملونةٍ في مؤخرة عقلي (وضع يده على قمّة رأسه) تعطي جسدي وأفكاري نوعاً من الخفّة, التي تجعلني مؤمناً متفانياً، ولكن ليس بشيءٍ محددٍ على الإطلاق. هل ذكرت لك هذا سابقاً؟ لا يهم, فقد وجب ذكرها في هذا السياق على أي حال، ولهذه الخاصيّة في نفسي تحديداً فسأصدق أي ادعاء تقوله عن نفسك, سأصدقه بحق, ما دام لا يتداخل مع حياتي بشكل عملي فوق-خرافيّ؛ أعني, لقد رأيتك تسقط من السماء, فكيف لي أن لا أدعك تكون بطلاً، أيّاً كان ما تدّعي، (انبجست على جبين آدابار تكشيرة استفهامٍ قصيرة, كأنّه يحاول تذكّر أمرٍ ما) آه, كم أتشوق لتلك الساعة التي تفكّ فيها تلك الجبيرة عن فكك, فتخبرني ما يدور بخلدك. المهم, أين كنا؟! آه نعم! في تلك اللحظات حين توجّست شعوراً بالذنب في عيني أمّي, وهو في الغالب ما قلبني عليها, وقد

كان ذلك حتّى قبل أن أفهم طبيعة عملها، وكنت أستشعر ذاك الاحتقار المضمر والمشهر لها من قِبل المسؤولين في المأوى، وهذا ما كان كقضيّة خسرتها في نظري, حتى من دون أن أفهم الجريمة؛ نعم في تلك اللحظات حكمت لصالح المجتمع, لصالح "الحق العام" ضد والدتي. في السنة التي وافتها المنيّة كنت أرفض الاجتماع بها معظم الوقت, وحين كنت أراها كنت أعانقها وأبلل وجهها بدموع لمّا أكن أفهم كنهها، والأغرب من فعلي هو رضاها عن نبذي لها؛ قد رأت مغفرةً في هذا, ربّما لأن ذنبها لم يكن ناتجاً عن طبيعة مولدي, أو قذارة مهنتها, بل عن كتمها هذا السرّ عنّي، أو لأنها رأت الصفح في نجاحها بضمّي لمجتمعٍ يذمّها ويبصق عليها, وقد يكون الأمر أنها رأت في بُعدي عنها والألم الذي أسببه لها بذلك عذاباً مستحقّاً. أيّاً كان السبب, فقد رأت في نفوري منها خلاصاً روحيّاً ما, قبلته دون أن تفرّط بشعورها بالمسؤولية تجاهي. (جلس أخيراً على الكرسي, وأرخى رأسه على ذراعه المتّكئة على ذراع الكرسيّ, وسرح في فكره دون أن تلوح نظرة حالمة على بصره, فتنبّه فوراً حين رفع آدابار إصبعيه وهبّ متجهاً نحوه, محاكياً إيماءته) اثنين؟ ماذا تعني؟ آه, إنك تعني المرّة الثانية التي خذلتها بها, أليس كذلك؟ (أومأ آدابار موافقاً) اعذرني, فقد استغرقت في ذكرى أمّي العزيزة. أتعلم, إنّي أزور قبرها مرة كل أسبوع. لم يكن الأمر هكذا على الدوام, فقد حدث هذا بعد أن تخليت عنها للمرة الثانية، وبعد هذا الحادث قررت أن أصبح الأب الروحي للمنبوذين أمثالي، وقد كان قراري دقيقاً بهذا الشكل الكلامي, وهو ما جعل تأثيره أكثر ديمومةً وأكثر قوّة من مجرّد شعورٍ دافعٍ لمساعدة أولئك وكفالتهم، فأنا لا أحاول الآن بهرجته, أي قراري, ارتجاعياً، ولا أنا أشدّ خيطاً من هنا وآخر من هناك وأجبرهما على أن يلتقيا في عقدة. أتعلم، إن هذا التشبيه تقريباً وما يبثّه من إزعاج في نفسي هو ما ثبّت عزيمتي وقوّاها؛ إذ عندما كنت صغيراً أحاول وصل طرفي ورقة بخطٍّ مستقيم, لسببٍ فنّي ما (قهقه ساخراً) مستخدماً مسطرة أقصر من طول تلك الورقة, مددت خطاً من اليمين إلى اليسار, ثم مددت آخر مستعملاً

المسطرة من اليسار إلى اليمين محاولاً وصل ذاك الخط، لكنه لم يمسّه، بل كان تقريباً موازياً له، حينها قررت أن أرسم خطوطي من اليمين إلى اليسار دفعة واحدة بمسطرة أو من غيرها. لقد فكّرت في تلك اللحظة لسنواتٍ عديدة محاولاً فهم ما انطوت عليه من معانٍ حياتية, ووجدت أن أوفر الأمثلة صلةً بها هي حين قالت إحدى صديقاتي العزيزات إنها تحب عشيقها ولا تريد تركه أبداً, وفي الوقت نفسه لا تريد الالتزام بعلاقة واحدة إلى الأبد؛ أرأيت كيف مدّت خطّاً من الحاضر إلى المستقبل وآخر من المستقبل إلى الحاضر, دون أن يلتقيا؟ لقد خلقت حياتين متوازيتين لا بد أن تساوم على إحداهما من أجل الأخرى. وأرجوك أن تبقي في بالك على صورة تلك الفتاة جالسة بجانبي على أدراج حديقة ما وهي تخبرني بما يساورها من شكوك في مشاريعها العملية والعشقية, القائمة والمنتواة, بشَعر كثيفٍ منسدل إلى قريب الخاصرة يذكّرني بشعر أختها التي كانت بدورها تربطه جدائل على الدوام. ولا تقلق, فتلك الأخت الكبرى "أم الجدائل" هي سرّ خيبتي الثانية، وهي ما أردت التقديم له. كنّا ثلاثتنا في دار الأيتام نفسها, لكنّي لا أذكر الكثير عن الصغرى من تلك الأيام, فهي تصغر كلينا بحوالي سبع سنواتٍ، وقد أظهرت منذ ذاك الحين طباعاً انزوائية أمكن ملاحظتها بسهولة. لقد كانتا أرفع منّي درجة, إذ كانتا يتيمتين فعلاً, وليس بالتجاوز مثلي، وهذا ما كان يجعلهما أكثر عرضةً واستحقاقاً لإحسان المحسنين, وشفقتهم. وقد قبلنا تلك الهرمية وما لازمها من تفسيرات دونما تذمّر, بل حتّى إننا شاركنا فاعلي الخير شفقتهم وعطفهم عليهما، كيف لا وقد صاحب تلك التراتبية الاجتماعية خرافات كافية للتصديق من قبلنا على الرغم من تفاصيلها المبهمة، كتلك الأقصوصة التي درجت تخبرنا كيف أن لقطاء الميتم قد تربّوا أول شهورهم في جحور الجرذان, على خلاف أولئك الأيتام الحق ذوي الأصل البشري الذي لا يُمارى به. بالطبع كان وجود أمّي يضعضع تلك الراحة العقائدية السائدة في الميتم, كرفاة قديس متفسّخة تعيد المعجزات إلى ميزان الطبيعة.

سأتجاوز في الوقت الحاضر إخبارك أحداث ثماني سنين من حياتي, لأنتقل من سنة منيّة والدتي إلى تلك حين لمحتني أمّ الجدائل مصادفةً جالساً في إحدى الحدائق العامّة, وقد ميزت هويتي بشكل أو بآخر. لا أعلم إن كانت قد عرفتني على الفور أو أنها راقبتني لدقائق قبل أن تقرر التقدم إلي لتخبرني بحماسةٍ صادقة بالكاد استطاعت كبتها أنها "قد عرفتني فور وقوع نظرها عليّ", ولم أقابل ذاك الانفعال بمثله, بل بجفاء قاسٍ يشعرني بالدوار في كلّ مرةٍ أذكره. حينها كنت ذا ثروةٍ لا بأس بها, وصاعد النجم في الوسط الاجتماعيّ/ الاقتصاديّ. لم أنكر تاريخي في تلك المجتمعات المتملّقة, بل أقررته دون أن أتحدّث عنه، مما جعله أقرب لأسطورة لا تصم مستقبلي بثقل واقعيّ من الماضي. كان الأمر كفحوى إيماني الذي حدّثتك عنه, عقيدة موازية تجري في خلفيّة الواقع المحسوس دون أن يتصادما. لقد أحسست حين رأيتها أن الماضي استطاع إيجاد طريقةٍ ليخطمني بواقعيّته الحسّيّة الفجّة. فاحت منها رائحة عطر رخيص اختلطت بأخرى صادرةٍ عن مساحيق تجميل مبالغٍ في استخدامها وتعرّقٍ غير مُجهد، ولم تكن ملابسها تفتقد كلّ حسٍّ جمالي, لكنّها كانت كبادرة تقرّبٍ للشهوانيّة عند الرجال فتعرض مفاتنها, وتبرزها بكرمٍ اقتراحيّ, وليس كإدراكٍ أنثويّ جماليّ ذاتيّ لجسدها, بل كإدراكٍ ذكوريّ جنسيّ خارجيّ. حدست بسرعة بما صارت إليه. نعم, قد انتهت إلى منقلب أمي نفسه. بالطبع, حاولت حين حديثها معي التوفير من إيماءاتها الموحية المكتسبة في سلك مهنتها قدر المستطاع, لكن هذا لم يمنع أن تفلت واحدة أو أخرى أحياناً وعن غير قصد. أتعلم, لم أكن حينها قد ندمت بعد على احتقاري لوالدتي الذي رَبا بقوّةٍ بعد وفاتها, لذا لم أستطع منع نفسي من إسدال ذاك الازدراء على أمّ الجدائل. وربّما كان للشمس الفاضحة بجلاء ضوئها ولعلنيّة مكان لقائنا أثرٌ أيضاً في فتوري الذي كان بمنزلة إنكار ضمنيّ لأيّ علاقة بها. آه, لا تحدْ بنظرك عنّي، ولا تنظر إليّ بإشفاق، بل بإدانة. لا تواسني بتلك الإيماءة اللامبالية التي تعرّض أن كلّ إنسان خطّاء؛ بل قد أثمت بحق إنسانيتي, ولا أريد مغفرةً على هذا, بل شعوراً معذباً بالذنب. أقسم لك أن ألماً حارقاً يمتد على طول ذراعي اليسرى في كلّ

مرّة أفكّر فيها بتلك اللحظة, وقد بدأ حين رأيت الخيبة والفخر مع مسحة أمل على تعابير وجهها وهي تغادرني، تماماً كما فعلت أمّي في سنتها الأخيرة على هذه الأرض. فكرت حينها أنّي أبالغ في تأويل تلك النظرة, فكيف لتعبير واحد أن يظهر كلّ تلك المشاعر؟! وربّما يدور بخلدك الآن الشيء نفسه. ربّما تريدني أن أسهب وصفيّاً في شرح تلك النظرة، أن أقول مثلاً إنها بدت سارحةً كما لو أنّها تقارن حاضرين وماضيين, وفي الوقت نفسه تحاول تركيز بؤرتها عليّ, ثم أتبعت ذلك بابتسامة صغيرةٍ حزينة كامتنان لتجلٍّ معيّن. لا لم يكن الأمر تحليلياً بتاتاً. تخيّل معي أن الذات هلامٌ متفاوت الكثافة والمرونة؛ فحين ينغرس وجهٌ ما على سبيل المثال في ذاك المعجون الأنويّ فإنه يترك أثراً مشابهاً تستطيع الذات فهمه بشكلٍ مباشر؛ هكذا أشعر بالأمر على أيّ حال.

نقر بإصبعه ثلاث مرات على طاولة في زاوية الغرفة ليزامن أفكاره إيقاعياً ويسيطر على حدّة اختلاجاته العاطفية, ثم تقدّم نحو النافذة فشرعها على مصراعيها لعدّة دقائق لم يتفوّه فيها بكلمة:

- سأغلق النافذة حالاً, لكني احتجت إلى بعض نفيحات باردة, وكان خيراً أنها محملةٌ برائحة المطر. فلأكمل إذاً. أنشب ذاك الشعور بالذنب مجسّاته في عروقي كعلقة شرهة, الأمر الذي حملني لأبحث عنها بلا كلل لأيام متواصلة. وبالطبع لم أعدم الحيلة, ولم تكن مساعيّ عشوائية فأهيم في المدينة, بل ممنهجة ومنظمة، وفي الوقت نفسه مبنية على الحدس. كنت متأكداً من عازتها المادية لما استنتجته عن عملها, وهذا يعني أنّها تقطن في إحدى المناطق الفقيرة, والتي كانت متمركزةً بشكل أساسيّ في نقطتين اثنتين, إحداهما بعيدةٌ عن الميتم المأفون, والأخرى قريبة منه. حال خروجي من الميتم توجّهت، بسبب احتقاري لذاك المكان، للعيش بعيداً عنه, لكنها, أي أم الجدائل, لم تكنّ حقداً له أو اشمئزازاً، كان بالنسبة إليها كحضنٍ تلقّاها وأخيّتها بعد وفاة والديهما, لذلك فقد افترضت أنها لن تمانع, بل سيشعرها بالاطمئنان بقاؤها على مقربةٍ منه. ومن هناك بدأت أجوب الشوارع متفرّساً في الوجوه باحثاً

عن أُلفةٍ قديمة فيها. تعرّفت على بعضها مباشرةً, فاستطعت المبادرة بالسؤال عن وجهتي عدّة مرات، لكن لم ينتج عن هذا سوى الفشل, لذلك لم أرَ بدّاً من التوجّه إلى الميتم لأستدرّ عنوان مسكنها، وقد أثبت فضول المشرفات نجوعه في الإلمام بمتعلقات رواد المأوى السابقين فدلّتني إحداهن, بعد أن ادعيت أنّي أريد رعاية زملائي السابقين والتبرّع للميتم بمبلغٍ محترم من المال؛ وقد فعلت حقّاً, وكان ذاك أحد أولى خيوط الدبلوماسية لأكون صريحاً معك، وهو أمرٌ لا أخجل به على الإطلاق. حين وصلت إلى باب دار مبتغاي دققت الباب بلهفةٍ, وبلا تردد، وهو ما ندمت عليه بعد دقاتي الأولى؛ إذ خطر لي أنه كان من الخير امتلاك بعض دقائق التردد التحضيري، لكن الأوان كان قد فات على ذاك، وعلى كل شيء آخر. أطلّت إحدى الجارات رأسها من النافذة, وقد كانت متأهبة فيما يبدو لهذا, وصرخت بنبرةٍ حاولت إن تظهرها ازدرائية لكنّي أدركت الغيرة بها:

- لقد فطست, ابحث عمّن هي أكثر حياة منها، ربّما أختها، إلّا إن كنت تفضّل مضاجعة الجثث.

لم أكن قد وعيت من مشاعري حين سمعت ذاك إلّا الغضب, فصرخت بها:

- وكم أجرك أنتِ أيتها الدميمة؟

تفاجأت المرأة بعدم حيائي, فعاودت الصراخ بشيء من خوف:

- أيّها النتن, سأرسل لك زوجي يلقنك بعض التهذيب.

- نعم, أرسلي لي ديّوثك فسيكون التفاهم في أمور المال أفضل مع ذاك التيس.

هكذا أجبتها، فقد كان لساني سليطاً وبسيطاً لا يعبّر إلا عن مشاعر مفردةٍ, بشكلٍ فظّ.

كان زوجها مقرفصاً على عتبةٍ بجوار باب دارهم, ولم أنتبه لحضوره إلّا حين صرخ بها:

- اخرسي أيتها الخرقاء, وعودي إلى الداخل.

ما كان يجرؤ على افتعال شجار معي, وقد قدّر تفاوت حجمينا وقوّتنا، ولا

أظنّه كان ناوياً شيئاً من هذا القبيل على أيّ حال؛ إذ إنه قضى حكمه في خلافي مع زوجته بذلك التعنيف ثم أعاد السيجارة إلى فمه بلا اكتراث بما ظهر على وجهها من غضب مكظوم, ولا بتحرّقي البادي للاستزادة في مصير أم الجدائل. حاولت السيطرة على انفعالي, ثم وجهت حديثي إليه بنبرة تتذبذب بين الصبر ونفاده:

- أحقاً هو ما قالت امرأتك؟

- بخصوص المرأة المتوفاة؟ أجل.

- كيف حدث هذا؟

- كل ما أعلمه أن جثّتها وجدت ليس بعيداً من هنا, وقد بدا من ملامح وجهها أنها خُنقت خنقاً. هذا ما تناقلته الألسن على الأقل.

- وأين أختها الآن؟

- ومن أين لي أن أعلم ذلك؟ صمت لوهلةٍ ثم استدرك: - في الغالب تحضر مراسم الدفن في المقبرة.

- مراسم دفن؟ وكيف يكون الدفن بهذه السرعة وقد قُتلت أيها المأفون؟

أردت ضربه حينها لكنّ غضبي عليه خمد, وانعكس تأنيباً على نفسي حين أجابني:

- الأرض تسارع إلى مواراة عوراتها من أمثالنا.

أترى الحكمة الكالحة التي نطق بها ذاك الأحمق! لقد كنت كتلك الأرض حين حاولت ردم وجودها بالتجاهل، عبت عليها ماضياً كنّا شركاء به لا بمشيئتنا ولكن بمشيئة الحياة وجبروتها، نظرت إليها بعينين شبحيتين لا تحملان أي عاطفة. آه ما أتعسني الآن! وما أتعسني حينها! (دلّك ذراعه اليسرى بيمينه) خارت قواي, وأحسست بانسحاب اللون من وجهي، لم أنطق بكلمة, لم تخامرني أيّ فكرة، شعرت بخواء تامٍّ في كياني وأنا أتوجه بصمتٍ إلى مقبرة الحيّ. سرنمت طريقي إلى هناك, ولم يؤبْ بصري إلى العالم الخارجي إلى أن رأيت ثلاثةً واقفين فوق قبر مازال بلا شاهدة؛ اقتربت منهم بلا عجل, كانوا

رجل دينٍ يتمتم بعض الصلوات المفترض بها أن تيسّر رحلة الميتة إلى عالمٍ آخر، وفتاةً, أدركتُ من فوري أنها الأخيّة, ابتعدت خطوة واحدة مترددة عن القبر حين رأتني أقترب, كبادرة اعتراض أو عدم إقرار بحرفة الأخت المتوفاة, أو خجل بعلاقتها بها, علّ تلك المسافة الرمزيّة تكون شفاعةً اجتماعية لها أمامي: رجل بهيئةٍ محترمة يريد القيام بواجب العزاء. لكني كرهت تلك الحركة, لأنها ذكرتني بجفائي لها قبل أيام, ومع ذلك فقد تفهمتها للسبب نفسه. اقتربت من القبر, ونظرت إلى وجه الأخت عن كثب لأقع على خاطرة أقسى من تأويلي الأول لتلك الخطوة؛ لم أرَ في عينيها جحوداً, بل حزناً وغضباً تهكميّين. أترى, هي لم تبتعد احتراماً لي, بل أرادت إهانتي والاستهزاء بأختها لتركها إياها دون سابق إنذار. لقد فعلت ما كانت تفعله حين يطلّ أحد الزبائن في دارهم، تخطو إلى الوراء لتخلي المكان. ظننت أنها قد عرفتني وأدركت الذنب المتأجج في صدري, فهي تعلم أن الرواد التجاريين لحياة أختها لن يأثر بهم إفلاس خدماتها، بل سيبحثون ببساطةٍ عن مورّد آخر للخدمة نفسها، وأن من اجتذبهم مسكنها الواقع ضمن حدود الفقر المواتية لحدود الطبقة المتوسّطة, حيث تتلاشي التقوى الأخلاقيّة وتُحتوى عواقب الأفعال, لن تجتذبهم علنية الموت ونُصُبه. لكنّها أخبرتني لاحقاً أنها لم تعلم هويتي حينها، فأنّى لها إذاً أن تهيننني؟! ربما أرادت فقط زجر أختها بتلك الطريقة الصامتة الهادئة. لم أجرؤ على سؤالها يوماً عن تلك الحادثة البسيطة.

أما ثالثهم, فكان شابّاً نحيلاً, محنيّ الظهر بعض الشيء, شاحب الوجه، رثّ الثياب, نظيفها، باغت الصلع مقدمة رأسه مبكراً, وانتثر الشيب فيما بقي من شعره، لكن نظرته كانت "جاذِبه" على حدّ تعبيره، لم تكن مجرّد نظرة احتقار أو استعلاء, وليست نظرة عامّة, بل كانت نظرة اتّهام شخصية, دون أن تختص أحداً. يا له من تناقضٍ شرس, ككلب صيد يلاحق مجموعةً من الفارين. الجميع مدانون, لكنْ لكلٍّ حال مختلفة. كأن لسان حال تلك النظرة يقول: "أنت منهم, إذاً أنت حتماً نتنٌ مثلهم, لكن اعترف لي تماماً كيف"، فهي تنفذ

إلى الأعماق لتذكرك بأسوأ ما يعتمل في طويّتك, وتدفعك لتخرّ على ركبتيك لطلب المغفرة منه كما لو أنّ الجرم تمّ بحقّه شخصيّاً؛ إنها نظرةٌ قُدّت في جهنّم, بمطارق ألف شيطان، كنظرتك تماماً حين وجدتك. ربما لم أُجِدْ وصفها لك سابقاً, وها قد فعلت الآن. إلّا أنها, وخلافاً لك مزمنة دائمة عنده وليست عرضيّة نسبيّة.

اعتذرت له من فوري حين أدرت بصري من الأخت نحوه. لم أعلم عن أي ندمٍ استغفرت، إلّا أن أسفي أُخذ محمل العزاء, ولم تُعر أسبابي أي اهتمامٍ لديهم، لكن توجيهي لتلك التعزية له دون الأخت وطّدت في نفسه مسؤوليّة دفعت حياته كلّها، على الأقل ذاك الجزء من حياته الذي قاد إلى اختفائه الغامض.

أظنّ أن التفاتة عنقي من وجه الأخيّة إلى وجهه, ثم لفظ أسفي له، بدا كخيار واعٍ مقصود, عكس أثر نظرته عليه، كأن توجّه مرآة صوب الميدوسا (صفق بيديه ببهجة) أها! أتعلم, بعد أن قُطع رأس الميدوسا ثُبّت على درع أثينا لتستعمله ضد أعدائها، وأنت تملك ذاك الدرع الآن، هذا هو الفرق بينكما.

وجم قليلاً عند هذه الخاطرة يتفكّر بمصير ذاك الشاب الذي أصبح صديقه فيما بعد:

- ما أقل حيائي! انظر إليك تكاد تغفو وأنا ما أزال في زخمٍ من هذري! أتعلم, نل قسطاً من الراحة الآن وسأعود إليك صباحاً (قال ببطء سارح, وهو يتّجه نحو الباب ليفتحه ثم يغلقه خلفه).

-٢

هل لنا أن نعزو لحظة إلهامٍ صدفويّةً لعبقرية ذاتيّة؟ وهل يحقّ لنا امتلاك فكرةٍ واتتنا من غير جهد مقصود وادعاؤها لأنفسنا؟ اقترحَ الفصلُ الأول الإيجاب على هذا السؤال، إذ إن الإلهام نتيجة حتمية, وإن كانت غير متوقَّعة الماهية, لسيرورة الشغف البنّاء. لكنْ بغضّ النظر عن هذا فإنّه، وفي معظم الأحيان، تكون إلهاماتنا بصيغتها التجريدية البحتة أقل أصالة مما نعوّل عليه،

فأصالتها الحقّة تكمن في كيفية إعادة تدويرها, وإخراجها من مقياس إلى آخر، من المقياس الغيري إلى الذاتي, من الخام إلى النفعيّ, من الجوهريّ إلى التمثيلي، أي تجذيرها بذاتنا؛ فالحياة العضويّة على سبيل المثال واحدة, لكنّها تُبُنّيت بملايين الأنواع والتشكيلات الكائنيّة, والتي لا يمكن نعت أحدها بالركاكة أو الابتذال, على الرغم من الأسبقيّة التطورية لبعضها على الأخرى.
ولهذا فإننا نستطيع تفهم حماس الشاب صاحب عيني الميدوسا حين نهض من وسنته ليدوّن مسوّدة مقال بحثيّ ربما خطر له بتأثير فكرة شخصٍ آخر ذي علاقة أكثر تلادةً مع المفهوم نفسه؛ وما أعنيه هنا هو الإيمان الموازي الذي اعتنقته الشخصية الحصيفة، وإنما كثيرة الكلام، التي ظهرت في بداية هذا الفصل, والتي سنشير إليها لأسباب لاحقة الذكر بـ (قاف).
أما بالنسبة إلى قراري بإطلاعكم على هذا المقال الآن فهو نابعٌ من دافعين: أولهما الإشارة إلى متانة العلاقة التي نشأت بين قاف وذاك الشاب على المستوى الروحيّ، وثانيهما التنوير بومضة صغيرة على شواغل عقله, كحمل عدسة مكبّرة على شخوص مشهد المقبرة ليسهل علينا تمييزهم وأفكارهم وأطوارهم الحياتيّة فيما يلي من أحداث القصّة. ولكنّي في الوقت نفسه لا أريد الجور على القارئ بأنانيّتي وإجبارَه على غمر نفسه في نصٍّ مربكٍ ورياضي, ولهذا فقد وجب عليَّ التنويه أن تجاوزه أمرٌ مفهوم ولا يسبغ أي نقص في فهم ما سيتبع من مجريات.

جزءٌ من مسوّدة مقال غير منشور: آلهة راديان
قد يبدو للوهلة الأولى أن إقران الزوايا بالربوبيّة أمر تجديفيٌّ ساخر, أو عبث لا طائل منه سوى إشباع فضولٍ رياضيّ ملتوٍ, لكنّ هذا الرأيّ لا يعدو كونه انطباعاً خاطئاً متعجّلاً عن مقاصدي في طرح هكذا توليفة.
فأولاً: وجود إله "كإله" مقتصرٌ على حال وجودنا ووعينا به بطريقة معينة، إذاً فهو علاقة واعيةٌ بين كائنين فكروين, أو بين مفهومٍ وعناصر الوعي الأخرى.

وهذا هو ما تمثّله الزوايا، أي علاقة بين كائنين هندسيين, سأسخّرها لرسم ربع دائرة من الآلهة المتنوعة التي يؤمن بها البشر.
ثانياً: لن يكون استعمالي للغة الرياضية ملغزاً أو اختصاصيّاً، لكنه أقرب لأن يكون استعارة اصطلاحيّة هدفها التوضيح والشرح.
وبهذا يمكنني أن أبدأ في شرح فكرتي التي لاتزال في مهدها البحثيّ, بتعيين أحد حدود تلك المجموعة, ألا وهو إله الزاوية القائمة، وهو إلهٌ تفسيريّ مطلق؛ أيّ هو التعليل النهائيّ لأي فعلٍ آخر، وهو حتماً غير برهانيّ، وإلّا فإن هذا سيخالف فرض مطلقيّته التفسيرية، فالبرهان في جوهره مقاربة تعليلية وإقرار بعدم كفاية المسلّمة بنفسها, وطلبه حينها يكون كطلب العدد النهائي بعد اللانهاية, فهو بحدّ ذاته البرهان الكليّ والجزئيّ لكل شيء ولأي شيء، وهو دوماً يقع على حدود معارفنا ليكملها بمطلقيته, فلا يتداخل بتاتاً مع العلم الراهن, إذ إنه دوماً في القبليّة أو البعديّة المطلقة، إله مهاجرٌ بطبيعته، وبهذا فهو لا يدرك إلّا بفرضه بأنفسنا, بعد التسليم بنسبية معارفنا, دون الحاجة للاستدلال عليه بيقينات العلم. وسأمثل هذا هندسيّاً بضلعٍ يعامد آخر, فتكون نقطة التقاطع هي النقطة التفسيرية، أما مسقطه على الضلع الآخر - وهو في حالتنا هذه مساوٍ للصفر - فإنّه يمثّل ما أسمّيه بالأثر الميثولوجي أو الديني, وهو قدرة فكرة الإله على استبدال العلم بادعاءات أخرى. وبسبب فرضنا بصفريّة برهانيته, ومطلقيّة تفسيريّته، فقد اخترت الدالتين المثلثيتين (التجيب والظل) للدلالة على قيم هذين المتغيرين اللذين هما في حالة الزاوية القائمة مساويان لـ (الصفر,∞) على التتالي. وبالطبع كلّما انغلقت الزاوية تبدأ تلك القيم بالتغيّر, وبهذا يتغيّر وضع الإله من مسلمة إلى فرضية، ومن فكرة إلى دين، إلى أن تصبح الزاوية بين الضلعيين صفراً وتختفي نقطة التماس السببية وتستحيل إلى خيال وإلهامٍ شخصي مرادف للعلم وموازٍ له، وتستحيل الأديان ومثولوجيتها إلى مجازات تعبيرية غير تعليليّة.
نهاية المسوّدة

-٣

لم يكد آدابار يفتح عينيه حتّى بادره قاف بالكلام:

- لقد غططت حقّاً في نوم طويل، أردت أن أذرّ وجهك ببعض الماء, لكني لا أشتهي بعد فراقك (قهقه باقتضاب)، تدري بتلك الخرافة أليس كذلك؟ الماء فراق؟ ليس أمراً مستغرباً الإيمان بأمر من هذا القبيل، فالماء كناية ممتازة عن البعد والترحال, والناس يحذرون أن تأخذ السماء رشّهم بعضهم به بجديّة الصلاة, فتحيل النقطة إلى محيط فاصل ونتيجة للمنطق نفسه. أؤمن أن قصّة الطوفان لم تظهر عبثاً في الكثير من الثقافات, بل أحسبها دعوةً بشريّة لإمساك زمام الأمور وتحمّل المسؤولية, إذ إن أوان الفراق مع السماء قد آن.

أتعلم, هناك نوع آخر من الخرافات المتداولة بحميمية, نوعٌ ذو منطق فلسفيّ أعقد، كتلك التي تدّعي أن فتح المقص وإعادة إغلاقه بلا هدف سيجلب الوبال يوماً ما، كأنّ هذا الفعل يخلق طاقة عليّة كامنة ستتضخّم وتتضخّم حتى تتفتّق عبر نسيج الكون عن مصيبة، كأن تغضب وتحنق لظلم ألمّ بك من أحد المتنفّذين في قريتك, فتطلق عدة رصاصات في الهواء لتنفّس عن ضيقك, فتسقط تلك الرصاصات على رأس غريمك لترديه قتيلاً؛ من القاتل هنا؟ مطلق الرصاص, أم القدر، أم الطاقتان العليّة والفيزيائية الكامنتان تصاحبتا إلى مستقرٍّ يتوازنان عنده؟ لا يهم! ما يهم هو قدرة قصص لها إمكانيات واقعيّة للحدوث على توليد خرافات استنباطيّة. على أيّ حال (تناول غرضاً كان قد تركه أرضاً بجواره) أترى هذا؟ قد كان هذا كلّ تركته, أو لنقل هديّة وداعه للعالم قبل اختفائه (كان يرفع بيده برطماناً زجاجياً في داخله سائلٌ مصفرّ يطفو فيه إبهام قدمٍ ميّت الظفر)، لا تحاول إخفاء نظرة الاستهجان عن ملامحك فقد فطنتها. اعلمْ أنها إبهام قدمه اليسرى، إبهامه الملعون. حين مشى أمامي في المقبرة لحظت عرجاً خفيفاً حسبته طارئاً، وقد كان حقّاً كذلك, إلّا أن الحياة اختارت استدامة ذاك العرض بشتّى المصادفات المشؤومة، لقد كان هو نفسه المسبب البادئ في تلك العاهة, أراد أن يزيد ألمه الجسديّ حتى

تزيد قدرته على الألم الداخليّ، كصفاء تشاعريّ أو توسعة وجوديّة، لكن تلك الإصابة التمدديّة كانت تقع فيما يبدو على لولب فيبوناتشي, فارتضاها الكون كمركز ثقلٍ جديدٍ له (ندّت عنه ضحكة قصيرة)، لا تقلق, سأشرح لك ما أعنيه لاحقاً. أتعلم! لم أعد متأكداً إن كان وصفي له من وحي أفكاري أم أفكاره. قال لي ذات مرّة إننا كقطبين لحقلٍ واحد. لا أؤيّد هذا, لكنّي لم أصحح فكرته هذه يوماً، إذ إنها التودد الوحيد الذي كان يكسر به جفاءه (صمت بتفكّر). حين اختفى, توجّست مكروهاً أصابه. لكنّه غريب الأطوار إلى أبعد الحدود (أشار إلى مومياء الإبهام)، وكان هذا يطّرد منذ لحظة لقائي به تصاعدياً، وبهذا واسيت قلقي حين مرت أيامٌ دون أن أسمع منه خبراً. إلّا أن ريبتي نالت في نهاية المطاف من عقلانيّة طويّتي، فأرغمت مالك شقته الفقيرة على فتح الباب بعد أن هددت بخلعه بالقوّة إذا لزم الأمر. كان الوقت غروباً حين تمّ ذلك، نعم, أذكر هذا تماماً بسبب الضوء البرتقالي المغتمّ المتسلل من النافذة الوحيدة في الغرفة, ليضيء مكتبه حيث وضع هذه اللعنة (رفع البرطمان مرة أخرى) متوسّطةً أبحاثه ومسوّداته. لم تفارق تلك الصورة خيالي, حتّى جعلتني أتطير حقّاً بقوّة اللعنة الشاعريّة التي وسم بها العالم. كنت مدركاً بواقعيّة جسامة المكروه الذي أصابه, لكني لم أكن مستعداً بعد لأحسم أمري بترجيح كفّة موته على نجاته. لست مستعداً بعد حتّى اللحظة. لكن على الرغم من هذا فإني على علمٍ بآخر فكرة كانت لتدور في خلده، كان لينكر المغفرة علينا أجمعين، كان ليقول شيئاً من قبيل: "اعمهوا في لعنتي إلى أغوار الأديم"، ثم يتلاشى في العدم. وليس هذا لخبثٍ في قلبه, بل لشعور خالص بالواجب. أعلم أن الحياة كدّرت نفسه ونكتتها بسوادٍ قاتمٍ لا فكاك منه، لاريب في ذلك، إلّا أن رهافته للعدالة كرّسته لعقاب البشريةٍ في داخله, دون أن يستثني نفسه حتّى. لذلك، وبغريزة ملحميّة, انكببت على أوراقه أدرسها كمشعوذ, علّني أعوّذ الكون من تعويذته. فكرةٌ خرقاء, أليس كذلك؟ قد أسرني في مجازه, فلم أستطع منه مناصاً. حاولت استنساخ أناه في ذاتي, فأنفصم إلى ذاتين هو وأنا،

فقط لأسأله الصفح. لكن هذا لم يفلح, إذ إن أناي جلمودة الجوهر, فلم تساوم منزلها بهذه الانهزامية, لذلك فقد قررت تدوير ما تركه من أناه, في أناي، فأرفض ما أظنه خاطئاً, وأقبل ما صحّ في نظري. كان أثره ملهماً، حتّى إن قرار التدوير كان من وحي إحدى مسوّداته حين قارن بين المجد التقريظيّ, ذاك اللحظيّ المتحقق بالشهرة والمال, والخلود الأثريّ, والذي يكون بأثر المرء التغيري الذي يطبّقه على العالم الخارجيّ، أن يجعل الكون امتداداً لوجوده. ولهذا سعيت إلى تدويره في أناي, أن أجعل من ذاتي إحدى بوابات خلوده. وليس هذا لاستحقاقه هكذا استمرارية، بل لأني بهذه الطريقة استطعت أن أنتزع منه المغفرة عنوة، لي وللوجود عامّة. لم يرد أن ينشر أيّاً من أفكاره, ففي هذا مسعى تصحيحيّ للبشرية مهما كان نافلاً، وفي هذا بادرة مانحة لفرصة أخرى, أي بمعنى آخر بادرة مغفرة. كان اكتنازاً عن سابق ترصّد. لكن ربّما, وهو في ذروة ألمه, تقصّد ترك صكوك خلوده ومومياء تلاشيه لي لأفاضل بينهما وأقرر, ولو رمزيّاً, أأدع لعنته تَقِبُ العالم أسًى, أم أستدرّ عفوه من استمراريّته الأثريّة؟

أخذ شهيقاً وزفيراً طويلين:

- أتحسب لوثةً أصابت عقلي في ذاك الحين؟ ربّما. وأنا أحسب هذا في بعض الأحيان حين أنظر للأمر من منظور بحتِ العقلانيّة. لكن لمَ عليّ هذا؟ أعني لمَ يتوجّب عليَّ تشخيص حالتي بذاك المنظور؟! انظر مثلاً إلى خرافة محليّة أخرى؛ العين، احتواءٌ بلاغيّ لشرّ الحسد, فالرؤية تتيح المقارنة, والتفاوت المحسوس يعزز الشعور بالظلم. بالطبع أنا لا أقرّ أن كل تفاوت فيه غبن، فالحياة غير مقسطة, لكن هذا لا يشرّع لنا دعوتها بالظالمة, فهي لا تدين لنا بنصابٍ محدد من أي شيء؛ لكن الحياة المتجليّة بنوعنا البشريّ تدين بقسط عضويّ بعضها لبعض, وهو ما يجوز لنا كمراقبين داخليين أن نسمّيه عدلاً؛ فالخليّة لا تنكر على أخرى مُقدّراتها, إلّا إن كانت سرطانيّة طبعاً. وهكذا فقد تحوّلت الكناية, بمعيّة الطبقيّة الخبيثة, إلى تجسيد. وهو ما استدعى بطبيعة

الحال رقية مضادة لا تقلّ بساطةً ولا كفاءةً ولا فاعليّة عن نظيرتها الندّيّة، فكانت الخرزة الزرقاء. يجب علينا قبل أن ننجع باستخراج الدواء أن نعلم بأيّ ملكوت يجري الداء. لكنها، وإن كانت بطلة خيالٍ ثقافيّ, فهي ليست بريئة من التواطؤ مع الواقع؛ فالخرزة الزرقاء استطاعت غالباً كبت ثوراتٍ شعبيّة إلى حين، أقرّت التفاوت, لكنها نسبت الخبث إلى من يضمر حقداً ضد هذا التوزيع "الطبيعيّ" للثروة, ثمّ أفنت عقابيله. أتخيلها كياقوتة ضخمة على صولجانات الملوك, تكشف عن قلوب شعوبهم وتمحّصها من كل غلّ ضدهم. وقد تستخدم بالسلطوية نفسها، حتّى مع أملاك أقلّ، كـ (ياء) ملكيّة مرئيّة, أو كرائحة الحيوان يتركها في منطقته فيتفادى أي عراك تنافسيّ. على الرغم من هذا, فإن حربها الأزلية مع العين تحدث دوماً في خلفيّة عقولنا, فلا حاجة بنا إلى عدّة عسكريّة أخرى لكبح الحسد سواها، (وقف عن الكرسي) ما أعنيه أنه حين تهاجمك فكرةٌ ذات طبيعة غير عقلانيّة فالأجدى أن تفنيها بفكرة مضادة من نفس الطبيعة، وهكذا فأنت تمنع إحداها أو الأخرى من التّماس مع الواقع لتتحول إلى تطيّر أو طقس. أتفهم قصدي؟! (أطلق تأوهة قصيرة, وعاد إلى كرسيّه)، لقد فقّح موتها عيون كلينا، ولكن باتجاهين مختلفين. لقد طرّفنا, ودعانا لأن نحسم مواقفنا في الحياة. تبنّى كلانا شكيمة بعثيّة. أردنا إلهام الموتى قيامتهم بطريقة أو بأخرى. لقد كان النهر الذي حمل جثّة أوفيليا, وكنت الهواء الذي حمل غناءها الأبدي. هكذا تقاسمنا, دون جهرٍ, الأدوار بيننا. أراد انتقاماً مباشراً لا هوادة فيه، وأردت لموتها اليتيم من تعاطف الناس أن يكون ربيب حياتي. كنا كـ "شفعٍ بأليلين" مختلفين لنفس الإرادة.

حين غادرا المقبرة غادرت برفقتهما، وطوال الطريق لم تتوانَ عيناه عن إسداء التحقير لي. تفهّمت هذا وارتضيته عقاباً لي, لكني وددت في الوقت نفسه لو ألطمه حتّى يكف. كنا بطولٍ واحدٍ تقريباً، ولكني كنت ذا الغلبة البدنية. خطر لي، وكدأبي، "ماذا لو أشبعته ضرباً الآن, ما هو أسوأ ما قد يحدث؟!"، لكنّي لم أفعل، وعوضاً من هذا ابتدأته الحديث, فقلت: - لقد لملم الملاعين

القضية على عجل، لم يبحثوا حتّى عن القرائن الروتينية.
لم يجبني لفترة, مما جعلني للحظة أكاد أحسم أمري فألكمه، لكنّه توقّف واستدار إليّ لينظر مباشرةً في عينيّ ويسأل:
- أتسعى حقّاً لإحقاق العدل؟
آه أيّ شفاعةٍ وجد ذنبي في هذا السؤال. بادلته نظرات مكاشفة أردته من خلالها أن يطّلع على لب روحي وألمي:
- هذا هو تماماً ما أسعى إليه.
كانت إجابتي وسؤاله بيعة للغاية نفسها وعهد رفقة مهّد لصداقتنا. وقفنا لحظات بصمت نؤكّد عزمنا, بينما كانت الأخيّة تراقبنا ببعض التعجّب لهذا التكافل الانتقاميّ. أعلم أنّي صرحت منذ قليل أن دافعي لم يكن ثأريّاً مباشراً, لكن هذا لا يلزم غياب النزعة للانتقام السلميّ الشامل من قيم المجتمع. أتعلم! يوجد صرعةٌ قيمية رماديّة جديدة تسلب الحق بإطلاق أحكام الصواب والخطأ على قيم البشر المختلفة وأفعالهم "أن لا نحكم على الناس"؛ أي سخافةٍ تلك! العامة ميّالون لإنكار الآخر, لذلك فهم, وإن أرجؤوا المحاكمة الأخلاقيّة, لم يتورعوا لحظة عن الإدانة, الأمر الذي أحال المجتمع من ديناميكي يسعى إلى الفضيلة, وإن كانت فضيلة عواميّة عاجزة, إلى اغتيابيّ شتّام سريع في قذف الألقاب, متخطٍّ أيّ محاكمات. لا تفلح هكذا قيم, وإن عني فيها خيرٌ, مع البداهة العامّة المشوّهة؛ أي أن لا نخضع ما ليس جديراً أصلاً لأن يكون موضوع محاكمة, كدين الشخص وسواه, إلى قبول لامبالٍ هامز لامزٍ مدّعٍ للتسامح. هناك ما هو خاطئ أصيل وما هو صائب أصيل. ميزان بسيط سأحاكم المجتمع وفقه, دون أن أواري نفسي خلف دريئة العصريّة. لقد وجدت صفةً مناسبةً تماماً لتلك القيمة ذات الأخلاقيّة الملفقة, والإدانات الخطفيّة؛ "مُجذأرّة". نعم, فهي أولاً تعني ما نبت ولم يينع كما هو معنيّ له, وهو وصفٌ ملائم للنيّة التي تجسّدت منحرفة عن جوهرها؛ وثانياً, تعني التأهب للسباب, هكذا بلا جدلٍ أو حوار. كلمة رائعة. لا أدري أي

سبب حدا باللغويين إلى جمع هكذا معنيين في كوكبة حروف واحدة, لكنّي استخلصت معنًى ذاتيّاً قنعت به لذاك الجهد. في تلك اللحظة ربّما تمثّلت لي تلك الخاطرة الملحّة على شكل صورة. لقد كنت رائداً حتى ذاك الحين بفن الحيلة والبقاء. وجَلَدي يُسيّد إرادتي إن عاجلاً أم آجلاً. أفلا يجعلني هذا قانوناً جديداً للطبيعة, تُحاكم الطبيعة بمكوناتها القديمة وفقه فتنجو منه أو تنقرض دونه؟! رأيت نفسي في المنتصف ممسكاً بيد أفرادٍ من مثلنا, مشكلين شبكة عظيمة نغربل بها الإنسانية من قيمها المضنية للروح, فلا يمرّ من ذاك الغربال إلّا من نجا من أوكار الأعراف الإقطاعية والشعوبيّة والاستعلائيّة وأيّ تحيزات أخرى, إلى الإنسانيّة الفائقة, الإنسانيّة الحقّة؛ أن أقسم البشر بين خيّرين وأشرار, لا مشجعين للخير ومشجعين للشر. أعلم أنّه أمرٌ غير ممكن، لكني أحاول أن أنقل لك الصورة التي تعبر عقلي من حين لآخر, خاصةً حين أحنق على عوام الفكر من الناس. إن كان الخير صرعة جديدة فسيصلب كلٌّ منهم نفسه افتداءً للآخر وللحداثة, وإن كان الشر هو السائد فسيحاول كلٌّ منهم تثبيت الآخرين على الخازوق حتى الموت في سبيل العصر. لكن للأسف لن يحقّ لنا حينها محاكمتهم على أفعالهم، فهي ليست أصيلة, بل مجرّد ثغاء أخلاقيّ قاصر غير راشد. لن يكون لنا حينها سوى ذمّهم, وتوبيخهم، ثم زجّهم في "الأحداث" التاريخيّة (قهقه بمرارةٍ ظاهرة)، بالطبع هناك دوماً كبش فداءٍ ثقافيّ يُضحّى به، لا لآلهة العدل, بل لإله الصفح العام؛ بل حتّى إنهم يدينون ذاك الكبش بكلّ ما أوتوا من كراهيّة وقدرة على إنكار الذنب. أظنّ أنهم كلما أوغلوا في تلك الكراهية القادحة, استطاعوا استخلاص أنفسهم من الجريمة والملامة. القدر, الشيطان, الفيزياء, هو, هي, هم؛ أيّ شيءٍ خلا أنفسهم هو الفاعل. تجد المذنب عندهم دوماً في ضمير الغائب. المسؤوليّة هي الخلق الأهم, وهي ما يفتقدونه. وبهذا أنا أدينهم جمعاً. لكني على الرغم من ذلك أغفر لهم واحداً واحداً. أختار أشبههم بي, وأحقّهم بالخلاص الذاتيّ فأدعمه إلى مرتقًى شُغِف به. قد تقول إنه عدلٌ متحيّز، لكنّه عدلٌ على أيّ حال. فكما

قلت لك، إنّ مشيئتي أصبحت ناموساً كونيّاً جديداً ذا انتقائيّة خاصّة. فهو ليس تحيّزاً, بل تجلياً ذاتياً للقانون. وأرجوك أن لا تخطئ فتحكم عليّ الظن بأنّي مدّعٍ للألوهيّة، فأنا ما زلت مصرّاً على بساطة طويّتي, لكنّها بساطةٌ غير مُدّعاة، ولن تكون سبباً في زَوَري عن الموضوعيّة.

العبور الرابع: مفترسٌ فائق

-١

- أتعلم, لقد أطلعتك على بعضٍ مما ترسّخ بجلاءٍ في نفسي الحاليّة من عقائد, لكنّي لمّا أنبئك بما ثبت فيها سابقاً من مذاهب وأفكار تخليت عن بعضها, ورسب إلى صيرورتي هذه بعضها، (حرّك آدابار رأسه ذات اليمين وذات الشمال) فدعني أقص عليك شيئاً من حياتي التالية للميتم, السابقة للقاء ذي الإصبع الملعونة. ولا تقلق, فلن أهجّئ لك مذامّي على عدّة أعذار لأسبغ عليها شيئاً من الاستحسان؛ على العكس، سأباشرك بقولي إني كنت وغداً, إنّما وغدٌ طيّب القلب. وهو تذييلٌ لطالما وجدت تبيانه مهمّاً حين أستذكر تلك المرحلة.
من الغريب أنه على الرغم من غضبي على أمّي حينها فقد كنت أستأنس بقصصها في عقلي, وأحاول سردها لنفسي دوماً، خاصة قبيل النوم, والاستدلال بِعِبرها خلال النهار. كنت مولعاً بواحدة منها على وجه التحديد، تلك التي تتحدث عن رضيع وجدته حيوانات الغابة فعطفت عليه, واعتنت به كجرو من جرائها حتىّ شبّ وأخذ عنها حيلتها فطوّرها لتلائمه. ولا يهم كيف تبدأ القصّة تماماً, ولا إن كان الوصيّ عليه ظبيّاً أو سبعاً أو قرداً، فإنه سيكيّف نفسه وفقها جميعاً, ويتفوّق عليها، بل وعلى أمثاله من البشر أيضاً, أولئك الذين لم يتوارثوا إلا مهارات بعضهم, التي تثبت سقمها في كثير من المجالات؛ أمّا هو, فقد وعى ذاتيّته الإنسانيّة بنفسه ومن نفسه, لذا فهي أصيلة، واكتسب معارفه من الطبيعة البحتة، فلا قيل ولا قال يكتنفها. لقد فتنتني تلك الفكرة بصيغها الأكثر تواضعاً، ومازالت بعد تفكّري المطوّل بها، لهذا لم أهَبْ عالم ما وراء أسوار الميتم حين فررت منه, والتجأت إلى الحدائق والشوارع للنوم والمعيشة، كنت أشعر أنّي أعيش بُطولتي.
في البداية حاكيت الطيور في اقتفاء طعامي فيما يَفضُل عن الناس, ولكن سعيي هذا أكسده الشتاء. كما أن وفرة الصيف كانت بمعظمها تذهب هباءً,

إذ لا يمكنني الاحتفاظ إلّا بما يمكنني تناوله, فلا سبيل لدي لاختزان الطعام ووقايته من الفساد، وهذا ما هداني لمفهوم القيمة, واستطعت تمييز الفرق منذ ذاك الحين بين القيمة المتحققة وتلك الظاهرة, وعلمت لاحقاً وبمدة قصيرة أنها تدعى تضخّماً. وليس حبّاً بالتوفير فقط, بل ومدفوعاً بحماسة اكتشافي العقلي هذا, سعيت إلى احتواء جهدي اليوميّ في أشكالٍ أجود في خزن القيمة, فبدأت بمقايضة طعامي, ثم جمع ما يمكن تدويره, وبيعه مقابل أكثر أشكال القيمة تجريديةً, النقود. أتعلم أنها, أي النقود, تسمّى في أصول المشروع بالسيولة, لقدرتها على اتخاذ أي شكل من أشكال الأصول الأخرى. لا أخفيك أنّي فُتنت بذاك التناسخ القيميّ, الذي يشبه في كنهه آلية الحياة على الأرض. لقد أكسبني وعيي المبكّر بهذا رافعةً اقتصادية على أقراني، حتّى إني خلال أشهر بتّ قادراً على مشاركة عدة شبّانٍ آخرين مسكنهم, بعد أن كنت أفترش أدراج المعابد وثيرة البُسط، ولهذا فلم أكن حتى ذاك الوقت قد رأيت سوى الوجه المحسن للآلهة الدارجة هنا، ذاك الذي لا يمانع أن تلتقط صغار الطيور بقايا الطعام من فمه. لكنّي أنست برفقتي لأولئك الشبّان الكادحين أكثر من أُلفتي لتلك المنامة. وعلى الرغم من ذلك فإنّ انطباعاتهم المرئيّة في ذاكرتي لا تعدو كونها وجوهاً بلا ملامح تطوف على أشباح أجسادٍ نحيلةٍ رماديّة. كانت أعمارهم متفاوتةً بين المراهقة وأواخر الشباب، وانضم إلينا بعد فترةٍ عجوزٌ يتّكئ على ولديه، أفسحنا له أحد أركان الغرفة ليتّخذه مكاناً له، إذ إننا أدركنا غريزيّاً, دون اغراقٍ بالتفكير، أن السكون يسعى ليعشش في الزوايا, بينا تسعى الحركة إلى الاتجاه الآخر؛ فالعنكبوت ينسج شعّه فيها, كما الموت لعلمه أنها تبعث الشعور بأنها ملجأ مُؤتمن لانغلاقها إلّا من مجال الرؤية. لا أنكر أنّي أحب التنعم بحماية ظهري بالزوايا من حين لآخر، لكنّي لا أُركد فيها حواسي, إذ إن الشعور المغالي بالاطمئنان يجعلنا فريسة سهلة لنوائب الحياة. وعلى الرغم من دوام ذاك الشيخ على الاستحمام, كنت أدرك بأنفي طاقته الحياتيّة الآسنة، بل على العكس كان تشممها أكثر سهولةً حين كان

يزيل نتن الجسد. وتلك الملاحظة دفعتني لأترك على جسدي توليفةً روائحية تظهر صحتي وتخفي أسقامي, فلا أكثر من الاستحمام ولا أهمله، كتلك الرائحة التي قد تعبق عن فرد قويٍّ في قطيع ذئاب. ولم ألذ بالماء الساخن إلا لغايات التعقيم، فذاك الرخاء هو نوع آخر من الزوايا التي قد يركن المرء إليها, فيسرف بالبقاء فيخمل ويلين بإزمان. قد تعلمت منذ سنّ مبكرة أنّ عليّ ترويض الحياة وإخضاعها لإرادتي, وهذا سيجعلني, بما أنّي جزء من الحياة, ممثلاً ناموسيّاً لها. كائن يتفوّق على ذاته بعد أن يعتنقها بحذافيرها, هي كل ما يتطلبه الأمر. أعلم أنك تفهم ما أعنيه تماماً. أنت واحدٌ منّا! انظر إلى عينيك كيف تتوقدان حين أشير إلى الإرادة ومعركتها مع الزوال - صمت لحظةً ثم استطرد - المهم, لم يصدر عن العجوز الكثير من الأفعال سوى ما تلازم مع تهالك الجسد، كان يتخذ حين ذاك بضعة كتبٍ وسادةً له, لكني لم أرَه يوماً يقرأ بها، لذلك افترضت أنها اتّخذت هذا الاستعمال مصيراً تدويرياً لها لملائمة صلابتها رقبته واهنة العضلات.

كان مرهف الحياء, تكاد عيناه تبضّان حين يرغمه ضعفه على طلب المساعدة. عبّر لي ابنه الأكبر سنّاً يوماً عن ضيق ذرعه بتلك الخصلة في والده، ولم يكن تذمّره عن عقوقٍ أو سوء نيّة، لكنّ مقدمته الاستيائيّة تلك أدت في نفسه إلى نتيجة أشعرته بالذنب, وأظنه قد خمّن أنّ فهمي خُطِفَ إلى تلك النتيجة ذاتها, أيّ إنه قد ناء بحمل والده. وعلى الرغم من أن كل ما قاله كان أن حياء والده يصعّب الأمور عليهم, فقد شعر أنّه اعترف بما يخزيه، فأرخى عينيه إلى الأرض واستأذن في الذهاب.

ناداني يوماً ذاك الشيخ إلى ركنه, وشرح لي بصوت خفيض أن عينيه لم تعودا قادرتين على القراءة، وطلب منّي, بابتسامة حبيسة الرجاء، أن أقرأ له بضع صفحات من أحد تلك الكتب المكوّمة عنده. لم أمانع ذلك بتاتاً, على العكس فقد سرّني طلبه، إذ إن الفضول كان يتسلل إليّ كلما لمحت أغلفتها المهترئة. تناولت أحدها كيفما اتفق وجلست بجانبه أقرأ له، كان ذلك حين زورت

الأخ الأكبر من زاوية عيني وهو يتسلل بحذر خشية أن يُرى، خشي أن يذكّرني ظهوره أمامي أثناء حضور الأب بتململه منه, فأنقل ما قال، فحرص أن يؤمّن غيابه من ذاكرتي بغيابه عن بصري؛ لكن الأمر لم يفلح كما قلت، إذ إني لمحته, وعلم هذا فتقدم نحونا مصطنعاً ضجيجاً كان يمكن تفاديه, ثم أطلق ضحكة مجلجلة حال وصوله وهتف:

- أنا هنا.

وضع يده بلطف ولكن بثقل على كتفي, تفوّه بمزحة صغيرة, أتبعها بضحكة أخرى ثم رحل. أدركت أنّه حالما انفضح أمره لذاكرتي قرر أن يستبدل الغياب بالسطوع المبهر الذي سيعمينا عن حقيقة غيابه. ترك طيفه ثالثاً لنا, ووصيّاً على مجرى حديثي مع الشيخ. بالتأكيد لم أكن أنوي ذكر اعترافه للأب، لكن سعة الحيلة النفسية للابن أعجبتني, وكشفي لها بتلك السليقة السريعة أكّد لي قدرتي على اكتساب تلك المهارة، ووجود الكتاب بين يدي حين حدث ذاك الاكتشاف كان له أثرٌ وجودي في حياتي.

أتعلم, ينظر العامّة للمصادفة باستعلاء فلسفي وهزء احتماليّ, فيعزونها لقوًى أكثر عقلانيّة وتقريريّة لإكسابها معنًى أقل عبثيّة وعرضيّة. لكن على المقياس الطبيعي الكبير, فإن المصادفة ظاهرة حتميّة ذات تكراريّة أقل مشاهدة من غيرها. ما قد يحدث, سيحدث حتماً، وما حدث مرّة سيحدث مرّة أخرى, فنواميس الكون ساريةٌ دوماً وبالاتجاه نفسه؛ ولكن أن يحدث لنا, ونكون شهوده، هو ما يلزمنا لاإراديّاً إسداء معنًى قدريّ لتبجيل ذاك الحدث. إن تلك الاحتمالات الصغيرة هي متنفّس إبداعيٌّ للقوانين الطبيعيّة، فإن حدوثها لا يخالف أيّاً من تلك القوانين, لكنّ أيّاً من تلك القوانين لا ينتجها بضرورة تنبؤيّة. إن جوهر الكون هو البَدد, لكن جوهر قوانينه هو الاقتصاديّة؛ فكلّما زاد البَدد, زاد سعي القوانين لخلق نظامٍ أكثر تعقيداً وخزناً للطاقة, وأقلّ تكهنيّة في ظهوره الوجوديّ. إن الكينونة والزوال هما الطبيعة المزدوجة للكون. والمصادفة إحدى أدوات التوفير والتنظيم لغاية الاستمرار.

ونحن لسنا مختلفين بتاتاً عن الكون, بل نحن صورةٌ عنه؛ نبني ونعمّر ونحن نحتضر، ننتج مصادفةً ما لم نسعَ إليه على وجه التحديد, لكننا نتبناه إن أثبت نجاعته. إن الكون رجع إلى نفسه, فكنّا, وكنّا على شاكلته؛ أعني على شاكلته الناموسيّة طبعاً. الآن, بعد أن قدمت للمصادفة بشكل عام, دعني أنفّذ نوعاً من الهندسة العكسيّة للمصادفة التي أعادت تخليقي بشكل من الأشكال.
العنصر الحدثيّ الأول, كان الخاطرة الشاكّة للابن, أمّا الثاني فهو سعة الحيلة النفسيّة والإيحائيّة له, والثالث هو قدرتي على فك شيفرة تكتيكه التلاعبيّ. وهذا المزيج ليس مزيجاً صدفوياً ساحراً إلا حين أضيف إليه العنصر الرابع، وهو وجود الكتاب بين يديّ, والذي كان يتحدث عن القصة التي ألهمتني منذ الصغر, بشكلٍ حصيف وبديع, نفسيّاً وفلسفيّاً، مما جعل تلك اللحظة بوتقةً لعناصر خلقت خلطةً لحمتني بها, فتولّد شغفي بالتعلم عن طريق الكتب.
قد تسأل: هل كانت تلك المصادفة لازمة لتلك النتيجة؟ لا, فبالنظر إلى خصالي تلك النتيجة كانت لتكون وإن آجلاً، لكنَّ حدوث المصادفة عجّل تلك النتيجة على الأقل بضع سنين, وتلك فائدةٌ اقتصاديّة لا يُستهان بها.

-٢

فاعلم أنّي سليل الطبيعة وجزء عضويّ منها لا عرضيّ ولا مضاف. وعلمي بهذا وإحساسي به هو من أعظم مفاخري. قد اصطفتني قوانين الكون لأحملها في داخلي وأؤمّن استمراريّة أخرى لها. لكن ذاك الاصطفاء لم يكن تفضّلاً منها, إذ إنه لم يكن خياراً كريماً ولا مصادفة عشوائيّة، لقد انتقتني غصباً عنها. إذ إن شكيمتي البقائيّة أرغمتها على ذلك. فكل معجزة حصلت لي مكتسبة, وكلّ مصادفةٍ مُستحقّة. نحن جزء من تسامي الطبيعة، ولا نعتنق هذا باستغلال ما سوانا واستعباده بل بالاندماج معه والانتماء له؛ فالتسامي هو الاستدامة, أما التدنّي فهو الاستنزاف. وهكذا بت أنظر إلى نفسي, سُخرة لما بعدي, لذاتي بعد دقيقة, لذاتي بعد سنة, للإنسانية بعد دهر, للكون بعد بشريّة. هذا هو

تساميَّ الخاص الذي أقرّته الطبيعة وباركته بالمصادفات
صمت لحظة, قبل أن يكمل خطبته:
- بدأ تعساء البشر ينظرون إلى الطبيعة بتعالٍ, حالما استطاعوا ترويض البيئة المحيطة، إنه كِبر النشوة, إذ إن ذاك الترويض لم يكن لا كفؤاً ولا واقياً، بل فرصةً للتماهي مع الكون.
ربما يخطر لك الآن أني قد استعملت مفهوم الطبيعة بازدواجيّة انتمائيّة، فمرةً أُضمّن بها نفسي, وأخرى أشير إليها كما لو أنّي مستقلّ عنها؛ لكن هذا هو التماهي المتسامي, أن تكون حين لا تكون, وأن لا تكون حين تكون. هكذا أبسط الأمر لنفسي. لكن قد يعقد هذا تبريري عليك. ما أعنيه بكل بساطة هو أنه لا ينبغي أن أضيع عن ذاتي في سكرة التناغم فأتلاشى في عبث تأكيد الصمت, ولا أن أستغرق في ذاتي فأنشز
أعجبه استطراده, فصمت ليأخذ المعنى مداه:
- ندعو الجزء الأكثر تفاعلاً وإدراكاً من الطبيعية بيئة, أمّا ما تبقى منها فهو مفهوم مجرّد عن الماديّة اليوميّة. انتبه لتلك التفرقة الاستهلاكيّة, فهي تصف سلوكاً بشريّاً وضيعاً ونفاقياً, فكلّ ما لا ينتمي إلى ملكوت الأشياء التي يمكن استثمارها عملانيّاً ينتمي إلى المجرّد المبهر الودود، أما ما يحوز على قيمة استنفاعيّةٍ عملياً فإمّا أن يُدجّن وإما أن يعادى. وبفضل تلك الفتوحات الإخضاعيّة فإن البيئة تتسع على حساب الطبيعة. وتلك التوسعات هي ما أدعوه بالتبييء الذي يحتدم كفاحه على الحدود بين المجرّد والاستهلاكيّ. أسبغ انطباعك عن التصحّر على ذاك المفهوم حتّى يكتمل في تصوّرك؛ فالثقافّة العامّة مثلاً تحاول تدجين العلم المتاخم لحدود المعرفة القديمة, فإن لم يكن لها هذا فهي تناصبه العداء. ربما يكون الأمر أننا لا ندرك شيئاً, إلّا إن كان له قيمة, أو أنه يكسب قيمة حال إدراكنا إيّاه، وهكذا يمكن للمرء أن يستدلّ فيقول إن التفكير إذاً في جوهره استهلاكيٌّ أيضاً. لا أخفيك, قد أعياني التفكير في هذا (قهقه للمفارقة) إلى أن وصلت إلى نتيجة مرضية حين عدت إلى المنظور

الطبيعي الكبير.
الاستعماليّة لا تعني الاستهلاكيّة إن كانت تؤدّي إلى الاستدامة، أي حين تستديمنا الموارد ونستديمها بدورنا، فيكون قيمة مضافة خلقها تكافل الموارد، نحن وما سوانا، نحن الصغرى مع نحن الكبرى، أنا مع نحن. والوعي الإنساني هو سابقة اقتصاديّة طبيعيّة في هذا المجال؛ إذ إنه زاد القيمة الكليّة للكون، فهو يتناسخ في فاكرتنا حين نعيه فيكتسب قيمة جديدة دون أن يفقد قيمته القديمة.
في مملكة الأفكار, تزيد المعيّة والضديّة من قيمة المملكة. لكن حين يتبنّى "التبييئيّون" تلك الأفكار فإنها تستحيل إلى ولاء متعصّب وعداوة لدود فهم كما أسلفت إمّا أن يدجّنوا كلّ ما سواهم ويخضعوه إلى دَرَكة الأشباه أو يحاولوا إفناءه. بكلتا الحالتين هو تماهٍ قسري خاسف للقيمة. يريدون أن يروا تجاعيد عجزهم على وجه العالم برمّته. ولا مجال للحياد مع التبييئيين، إذ إنهم لا يستطيعون إدراك القيمة إن لم تكن استهلاكيّة. ولهذا السبب نفسه فإن العدم أمرٌ غير محتمل، فهو قيمة منيعةٌ عن الاستهلاك, الأمر الذي يجعله انحلال كل القيم, ومن ثَمَّ ذَويّ كل شيء خيّر.

-٣
آه, يا لي من ثرثار متشدّق! إلى أين أريد أن أصل في حديثي ومقدماتي تلك؟ قد تسأل، أليس كذلك؟ كنت أريد أن أصل إلى اعتراف أثقل على ماضيَّ للحظة، لكني أفضيت مما أسلف إلى تبرئة نفسي من الشبه مع أولئك التبييئيين. كان هذا همّي الذي أردت أن أريح ذكرياتي منه؛ الشبه. كنت شرساً كمفترسات الغاب, لا شكّ في ذلك. وهذه الكناية هي ما التبس عليّ. لا شكّ أنّي اشتركت معهم ببعض الخصال, التي لا تكفي لإدراجي في خانتهم. ربّما تحسب أن هذه المحاكمة التي أضع نفسي فيها مختلقة؛ فالإدانة, أي وصمة التبييء. هي صنيعتي الفكرية، وأنا القاضي والمُتّهم, وعلى الرغم من ذلك فإني أحاول

التملّص من الاتهام. لكنّ لي حججي التي أودّ لو أعرضها عليك (قال بنبرة صادقة تتوخى العدل لا التماس العذر)، فأوّلاً, لم أنتمِ يوماً إلى قطيع صيد لأعيش, ولا إلى سرب جراد أيديولوجي، فما أؤمن به هو ما أؤمن به حقّاً, ولا أفعل إلّا ما يمليه عليّ ذاك الإيمان, ولا أرى الفضيلة في الكثرة, بل بالانضباط مع الذات. ثانياً, لم أستعْلِ يوماً على غرائزي الطبيعية ولا أنكرتها. أفخر بصحتي ومرضي، مأكلي وتغوّطي، ولادتي وتحلّلي، وجودي وزوالي، البدايات وما تلهمه من نهايات، كينونتي وعواقبها. أما هم فقد اعتنقوا الأولى وجحدوا ما تفرضه من ضدّ. مقدمات بلا نتائج. يتلذذون بفكرة الطعام، ويقرفون من فكرة التبرّز؛ يعيشون إلى الذروة, ويتلاعبون بفكرة الموت؛ يتغنّون بالحرية, ويعاقبون الاختيار؛ يبجلون الطبيعة، ويهتكون البيئة المحيطة. إنهم كشعاع باتجاه واحد, يفقدهم توازنهم فيهوون. أعادوا تخليق أنفسهم من عدمٍ مقدّس أو هرميّة حيوانيّة تناسخيّة, فانفصلوا عن السيرورة التطورية التي انبثقوا منها، والتي وجب أن يعيدوا اختبارها داخل أنفسهم. أما أنا فقد أنست تلك الوحشة في ذاتي, ورجعت إليها فارتقت بي وأنسنتني. أتعلم, يتبدّى لي واضحاً الآن أن ماهيّة الوعي هي الرجوع إلى النفس, وهي ديدن الكون ونمطه كما ذكرت لك سابقاً. نعم, الرجوع التكراريّ إلى النفس هو جوهر التطور والانبثاق. التفت الكون فوُجِدت الحياة, التفت الحياة فوُجد الوعي, وحين يلتف الوعي على نفسه ستوجد الإنسانيّة الفائقة، والتي لا أدعيها لنفسي, أنا مجرّد إنسان حق, مفترس فائق. إن إدراك الموت هو المنفعة التطوّرية التي أوجدت الوعي, إذ إنّا رأينا انعكاس حياتنا به، انعكاس السيرورة في النهاية. فقل لي الآن، ألا يفصلني كلّ هذا عنهم؟ أَنظر إلى انقراض نوعنا البشري, ثم إلى زوال الحياة بفعلنا, أديم النظر في الشيء, لأرى انعكاس بدايته فأغيّرها. لست إلهاً لكنّي أرزح تحت ذَرْع المسؤوليّة الإنسانيّة, مسؤولية الالتفات الآدميّ التي شرّفني الوجود بها.

على الرغم من محاولتي تبرئة نفسي أمامك, فإنّي لست بصدد تطهير نفسي

طهراً ملائكيّاً وتنزيهياً عن المآخذ؛ فلم أكن أتورّع عن إلحاق الأذى بالآخرين في سبيل إحقاق إرادتي, أو حتّى نزواتي. لكنّي أعيش حياة مغفرة، حياة تكفير عن كلّ ما قد ألحقته من أذيّة. لا أعتنق البلادة الأخلاقيّة واللافعل مذهباً, كما يفعل الرهبان الخاملون. إن مصدري الأخلاقي هو تقوى ذاتي السامية. "أنَا" بلا ثقلٍ تطفو وتحوّم فوقي دائماً. وهي ذاتٌ فاعلة, فلا يكون تقواها إلّا بالفعل. فلا يهم أن تنسى ذنوبك, وتسلوها بالوقت، فالذكريات ليست الطريقة الوحيدة التي تمكّن الماضي من العودة وفرض نفسه على تكّات ساعة يدك. المغفرة هي أن تحاول إعادة خلق العالم على صورة تلك الإرادة السامية.

-٤

أتعلم, قص عليّ صاحبنا (أشار للإصبع مجدداً) إحدى كوابيسه المتكرّرة، والتي كان تأويلها جزءاً من الحلم, لا تأويل يقظة؛ أي إنه كان قد فهم تفسيره خلال عيشه له. كان يحلم أنّه في داره القديمة, تلك التي عاش فيها طفولته، يجلس مواجهاً لكنبة تنتمي إلى ذاك الماضي, حيث تستلقي عليها مغمضةً عينيها أمٌّ الجدائل، تفتح عينيها لوهلة وتعاود إغماضهما, وهو لايزال جالساً هناك, يتلو لشخصٍ غير مرئيّ قصائد شعرية عن ظهر قلب، ثم، ولسبب أو لآخر، اضطر للنهوض إلى أمرٍ ما خارج هذا المشهد, ثم العودة إليه، ليجد أن الكنبة والفتاة التي كانت عليها قد اختفتا, وأنه قد نسي القصائد بجملتها, إلا عناوينها. كانت تحدّق به مؤنّبةً بلا وجلٍ من غياهب عقله الباطن. هذه هي اللحظة التي ينتهي بها الحلم, ليبدأ الكابوس؛ حين يدرك أن الماضي هو الآخر ينساه بدوره، ينظر إليه وينكره، يخبره أنّه موجود بعواطفه, شعره وأثاثه، لكنه يختار أن يبعد ذاكرة صديقي عنه.

أتعلم كيف يكون الأمر حين تعود إلى مكانٍ تحنّ إليه بعد فترة من الزمن، فلا يطاوع المكان ذكرياتك, دون أن يخون ذاكرتك الوصفيّة؟ إنه الماضي يقول لك إنه هو, لكنك لست أنت. إنها هاوية نيتشه الوجودية. وكان صديقي يهوي

بها. نسيان متبادل, وربما انتقاميّ.
تنهّد تنهيدة عميقة وقام يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً, كدأبه حين تتزاحم الخواطر في خلده, فيحاول هدهدتها:
- أأدافع عن صديقي أمام الماضي فأقول إن ذاكرته لم تكن تعمل بفاعليّة وصفيّة؟! لم يكن له حسٌّ توجّهٍ مكانيّ, إن صح القول، ولا تعلق الملامح مطوّلاً في ذاكرته، لم يكن عقله يخيّبه في تعلّم الأفكار وملاحظة الأنماط، كان يلاحظ الأشياء بشكل فيزيائيّ. لكل شيء مركز ثقل, ولكل نظامٍ جاذب. حتّى أكثر المواضيع تجريديةً كانت تملك تلك الخصائص، أو أستطيع أن أقول إن ملاحظته كانت إحصائيّة, أيّ إن للأشياء متوسطاً طبيعيّاً تسعى إليه, ولا يلاحظ الاختلاف إلّا إن شتّ بشكل معياريّ. لا أقول إنه كان يمتلك عواطف ميكانيكية، بل على العكس كانت جيّاشة, لكنها منبعثة من داخله لا من العالم الخارجيّ. كان يقول لي إنه "واقعيّ, بل شديد الواقعيّة"، لكنه ليس من متبنّي الواقع الشائع، بل يرى الأمور أقرب ما يكون إلى جوهرها (أطرق إلى الأرض). لا أظنّ أن هذا الأمر قد شفع له أمام ماضيه, ولا أمام نفسه؛ إذ إنّه لم يغفر لنفسه هذا النسيان، ولم يغفره لأحد. كان يريد أن يلقي بنفسه دوماً تحت وطأة العواقب لتهصره. لم يكن شعوره بالمسؤوليّة دافعه الأساسيّ، أو أن تلك المسؤوليّة كانت تتجلّى في نفسه بشكل تبكيت ضميرٍ مازوشيّ (حرّك سبّابته ليشير إلى نقطة محددة)، حتّى المسؤولية لها نوعان وثالثٌ مزيجٌ منهما؛ أحدهما, ائتمانيّ, أي إنك ملتزمٌ بالثواب أو العقاب الناتج عن عملٍ ما, لكن دون أن تكون ملتزماً أخلاقيّاً بالفعل نفسه، كصكّ غفرانٍ أو صكّ إدانة. أما الثاني فهو اتّقائيّ, فالمسؤوليّة تجاه الفعل, لا تجاه النتائج. بالطبع, إن النوع الثالث من المسؤولية هو النموذجيّ ذو القطبين، مزيج من الأول والثاني. كان يحاول جاهداً الإبقاء على هذا التوازن، لكنّه كان أميل، وبشكلٍ جذريّ، للشكل الائتمانيّ. (نظر إلى ساعته) آه قد حان موعد الطبيب.

العبور الخامس: ديالكتيكية اسم الفاعل

-١

بدا الطبيب متفاجئاً من سرعة تماثل آدابار للشفاء, حتّى إنه أعفاه من أربطة الفكّ وأنبوب التغذية، لكنّه نصحه بعدم الكلام, واستخدام القصبة لتناول الحساء حتى صباح الغد ليتأكد تماماً من سلامة تشخيصه وتعافيه، مما أسعد قاف, وجعله في الوقت نفسه مصرّاً على أن يكمل قصّته بسرعة حتّى لا يكون هناك فرصةٌ لمقاطعته فيما بعد، على الرغم من أنّه لم تبدُ على آدابار سيماء التململ من أحاديثه أو أنّه همّ ببادرة جسديّة لاستيقافه.

عاد قاف إلى الغرفة وفي يده وعاء من الحساء:

- لقد حضّرته لك بنفسي، حرصت على تضمين أكثر كمٍّ ممكن من القيم الغذائيّة دون أن أخلّ بالمذاق. أتعلم, هناك معادلات لوجستيّة كانت لتساعدني على وجه دقيق في هذه الغاية (قهقه باقتضاب)، هل حدّثتك عن المسؤوليّة البشريّة بشقيها الإنسانيّ والمعيشيّ؟ آه لقد هذرت بعيداً, حتّى إني لم أعد أذكر مذاهبي التي ذهبت إليها في حديثي لك؛ لا يهم, إن ذاك التوازن بين الفائدة والمذاق هو تمثيل ممتاز لذاك الفرق.

أريد حقّاً أن أشرح لك هذا, فأنا نتيجةٌ مباشرة لتحمّلي تلك المسؤوليّة. دعني أبدأ من نقطة مهمة، ألا وهي أنّنا والحياة عرضيان لبعضنا البعض. أعلم أن الفكرة الموضوعيّة السائدة تستنتج عرضيتنا بالنسبة إلى الحياة وعرضية الحياة بالنسبة إلى الكون، وهكذا، ولكن بمنظور ذاتيّ فالحياة أيضاً عرضيّةٌ لنا، فلا نستطيع أن ندرك شيئاً دون أن نكون جزءاً منه، لذلك فلا يهمّ إدراكنا أن الحياة بمفهومها البارد العام ستستمّر بعدنا, فإدراكنا هذا لن يستمرّ بعدنا، لذلك, فكلّ ما أنا عرضيّ له هو عرضيّ لي، على الأقل بالمعنى التجريبيّ، وهذا هو ما تنطوي عليه المسؤولية المعيشيّة، استدامة التجربة الحسيّة، وهي شيءٌ يمكننا الاعتماد فيه على غرائزنا الحيوانيّة بعد شحذها. أما النوع الآخر, أي الإنسانيّ،

فيلزم عن فكرة مضادّة؛ أي إننا والحياة لازمان وواجبان لبعض، فالنتيجة - بغض النظر عما يبدو عليها من عشوائيّة - هي حتميّة للمقدمة، ولهذا فمن مسؤوليتنا الاستمرار بعد التجربة الحسيّة. وهنا يتجلّى الفن والأدب والإحسانُ الدافعُ للتسامي. لهذا فحين تتبنى تلك المسؤولية بكاملها تكون فانياً وخالداً بالوقت نفسه، منقطعاً ومستمراً بشكلٍ متلازم (برقت عينا آدابار عند هذه الفكرة, ولاحظ قاف هذا)، آه, يبدو أنك كنت قد وصلت إلى هذه النتيجة مسبقاً بنفسك، يا لسروري وغبطتي برفقتك! (تنهّد ببطء, ثم رفع حاجبيه كأنه استدرك أمراً ما) الشيخ, لقد نسيت إكمال ذكرى تلك الحادثة. لأصدقك القول, لم يبقَ شيء يستحق الذكر منها إلّا أن الأب قد توفي بعد فترة قصيرة، ولم يترك من ميراثٍ إلّا تلك الكتب التي أردت شراءها من أولاده, وعرضت عليهم مبلغاً سخيّاً، لكنهم رفضوه, وعدّوا أي مبلغ أدفعه لقاء تلك الكتب الرثّة غبناً منهم، فقدموها إليّ كهدية. أتعلم, كان لأي مبلغ مهما تفه أن يساعدهم في تلك المعيشة القاسية، لكن بيع ما بقي من والدهم كان يبدو كانقطاعٍ تامٍ لوجوده، أمّا أن تجد تلك الكتب مصيرها معي كمكرمة فهي كإرباء استمراريّ لوجود والدهم على هذه الأرض. حين قبلت تلك الهدية منهم أقسمت في خلدي أن أعينهم حين أقتدر؛ ولم أحنث بقسمي, فقد حققته بعد سنوات عديدة من ذاك الموقف. ربما كانت تلك الحادثة إحدى بذور انبثاق المسؤولية الإنسانيّة في نفسي، والتي لم تنبت حقّاً إلّا بعد مقتل أم الجدائل.

بقيت حوالي السنة في تلك الدار, أفترش الأرض بغطاء رقيق. كنت أستطيع الحصول على شيءٍ أكثر وثارة، لكنّي لم أرد للضعف أن ينال منّي كما نال من رفقاء النُّزل. لو تعلم كم كنت أحتقر المتذمّرين وأتقزز من ضعفهم وقلة حيلتهم. حكت في عقلي أسطورةً لي، أسطورةً من القوّة, والعبقريّة, والقدرة، من البقاء, والتفوّق، والانبثاق المتكرر كعنقاء؛ قاف, الذات المتفوّقة في نفسي. ولم تعزني الشجاعة ولا العزيمة لأعيش تلك الأسطورة, ولأُصبحها فيما بعد. كانت تلك الذات مخلصي من براثن الركود والانهزاميّة والبداهة العامّة

السطحيّة، انتشلتني من درك الراحة القبيحة الانمساخيّة ودفعتني بلا هوادة على درجات التسامي. لا أنكر أنها كانت وحشاً كاسراً لا يعبأ إلّا بقهر كل ما سواه, ليبقى هو فوق كلّ شيء، كلّ شيء. لكن تلك الذات لم تكن مجرّد فكرة, بل نظاماً حيّاً نضج مع الوقت والتجارب حتّى كانني أنا, وكنته. لذلك, يمكنك أن تدعوني يا صديقي بـ (قاف).

-٢

لا يهمّ أن أفصّل لك طبيعة الأعمال التي قمت بها حتى أصبحت شاباً معقول الثروة في السادسة عشرة من عمري، لكن الأمر ببساطة واضحة هو السعي لزيادة الربح عن التكلفة، وهذا يعني أن أُنقص الجهد وأزيد الإنتاج. فكل فعل أفعله هو استثمار مستقبلي. استحلت إلى مشروع بنفسي. ساعات نومي مقدّرة, ولقيماتي كذلك. لم أرد أن أكون كائناً استهلاكيّاً، بل منتجاً ذا قيمةٍ موجبة. وقد عنيت هذا حينها بمعنًى ماديٍّ صارم. لم أكن بخيلاً, لكن كلّ شيء كان بمقدار؛ فلا أخلط الضرورات مع النزوات، وأعطي كلاً منها حقّها من الموارد. أعترف بنفسي ككل, لكني أتحيّز لجانبي المنتج الاقتصاديّ، ولم يكن هذا لغايات شرهة طمّاعة، بل كما قال صديقي: "واقعيّة أقرب للجوهر"؛ فقد أردت أن أستديم التجربة الحياتيّة بتقليل الجهد الضروري للعيش, والوقت المكرّس لتوليد الموارد. خلقت وسائل إنتاج تقوم بذاك الجهد بالنيابة عنّي. كل ّما علي فعله هو تطويرها وصيانتها. بالطبع أعني هذا بالمعنى المجازيّ. ومنذ عشرينيات عمري لم يزد عملي الاستثماري عن خلق مشروعٍ تلو الآخر، توطيده ثم تركه لميكانيكيته الوضعيّة.

في تلك الحقبة, أي بعد أن أصبح من الممكن الاعتماد على غناي ليُربي نفسه بنفسه، شعرت أنّي نفثت الحياة في جهدي، فيمكنه الآن التكاثر والاستمرار دون تدخّلي المستمرّ. بدأ هذا الفصل من حياتي كما أسلفت في بداية سن السادسة عشرة تقريباً، فألهمتني هذه الحياة قلقاً آخر؛ ألا وهو الاستمراريّة

البيولوجيّة. كنت فخوراً بما أحوزه من خصائص جينيّة، وأردت بابٍ إيثاريٍّ منح تلك الخصال لأفراد آخرين. لم تجذبني حينها بنات عرقي, فالأمر يبدو لي حتّى الآن كسِفاح قربى. أستطيع أن أقر الجمال والفتنة التي يتمتع بها كثير منهن، لكن هذا لم يكن كافياً. أردت منح مخلوقٍ أكثر تماهياً مع الإنسانية, مع احتمالات مرضيّة أقل. بصراحةٍ لم يكن سلوكي ناتجاً فكريّاً عن هذه الخاطرة، لكن هذه الخاطرة هي تحليلٌ لسلوكي حينذاك. لم تجذبني إلّا نساء الأعراق الأخرى.

لقد وقع اختياري حينها على المتزوجات منهن، كبعض الطيور المتطفلة التي تترك بيضها في أعشاش أخرى؛ إذ إني لم أرد هدر وقتي على الأبوّة، كما أن ثقتي أن الأمومة البيولوجيّة فعل أنانيّ وليس غيريّاً جعلني أقدم على مسعاي الجنسيّ ذاك دون خوفٍ على سلامة ذريّتي. أترى, فالدبة تدافع عن جرائها لعدم إدراكها أنهم ليسوا جزءاً منها؛ فخلال مدة الحمل والولادة تولّدت وشيجةٌ عضويةٌ بين الأم وبنيها، فهي لا تدرك أبناءها إلّا كجزءٍ حساس هشٍّ وضعيفٍ منها، والدفاع عنه غريزة حياة أو موت بالنسبة إليها. بالطبع كان غضبي على والدتي يجبرني على إسدال هذه الأمومة على البشريّة جمعاء. لا أقول إني أقرّ الآن بغيابها التام، لكنّي أدركها بشكل آخر؛ فالأمومة الإنسانيّة النبيلة تكون بعد الانفصال العضويّ التام، حين تقرّ الأم باستقلاليّة أبنائها دون أن يغيب حبّها أو دعمها لهم. هذا ما فعلته والدتي؛ اختارت الأفضل لي, دون أن تغيّب حبها ورعايتها لي (أطرق مفكّراً مرة أخرى, مُدلّكاً ذراعه)، لكن هناك الكثير من الأمهات البشريات أيضاً اللاتي يبتززن الأبناء بحب ضمنيّ المشروطيّة بالتبعيّة. أنانيّة ما بعدها إلّا النرجسيّة. يردنَ لأبنائهن أن يكونوا بواباتٍ افتراضيّة يعشنَ بها حياةً لم يختبرنها هنَّ بأنفسهنَّ أو أن يستمررن تماماً على نفس التجربة الموروثة. إنّه حب بقاء, وليس حبّاً إيثارياً، حتى لو أنّه تضمّن في بعض الأحيان ما يوحي بالتضحيّة؛ فبتر اليد المصابة بلا أمل يصبّ في مصلحة بقيّة الجسد.

أظن أنّه يوجد عشرات الأبناء من صُلْبي, لكنّي لم أتعرّف إلّا على واحد منهم. جاء إليّ قبل حوالي عشرين سنة وقال لي إنه سيقتلني يوماً ما لما فعلت، (قهقه بحبور) كنت أستطيع صرعه بيد واحدة، على الرغم ممّا يبدو عليه من قوّة بدنية. لم يقلها قاصداً فعلها، بل في الغالب أراد فقط إظهار حنقه عليّ وعلى قرار والدته بالتزاوج معي. لم أدرِ لمَ كان عليّ أن ألوم نفسي في هذا الصدد، فلم أفعل شيئاً في الخفاء, وهذا يعني عدم معاناتي حينها من أي شيء من قبيل الذنب أو التبكيت، وكان قرار والدته قراراً هندسته الغريزة الطبيعيّة عبر آلافٍ من السنين؛ هذا ما كنت أقوله لنفسي حينها. لا أنكر أنّي ما زلت لا أقيم للزواج المؤسساتيّ وزناً، ولا أقيم وزناً إلّا لارتباط العشق، لكنّي لم أعد أريد أن أكون جزءاً من خديعةٍ مصدرها الضعف والانهزاميّة.

-٣

في إحدى قصصه التي كتبها ووجدتها بعد اختفائه, سألت الشخصيّة الرئيسيّة نفسها شيئاً من قبيل: هل يجعل القتل فاعله قاتلاً؟ ومتى يحقّ لنا سبغ الفعل على الفاعل؟ ومتى يجب على الفاعل أن يُعاقَب على فعلٍ طارئ قام به؟
لم يسهب في قصته بالإجابة على هذا السؤال بشكل مباشر، فقد كان هو وأسئلةٌ أخرى مسّاً من جنونٍ أفضى إلى حتفه، لكنّه استدلّ عبر سرده أن تكرار الفعل غير ضروريّ لوسم صاحبه به؛ من قَتَلَ مرّةً فهو قاتل, ومن سرق مرّةً فهو سارق. لم يكن هذا مفاجئاً، فهو كما قلت لك لم يكن يسمح لنفسه بالمغفرة من باب الواجب. ومع ذلك, فقد أرّقتني تلك النتيجة؛ ففي هذه الحال فإنّ كثيراً من الأفعال , وإن لم أفعلها سوى مرّةٍ واحدة , أنا على استعدادٍ للقيام بها مراتٍ أخرى. تكاتف هذا السؤال مع شعور بالذنب مما سلف, ليسلبني النوم وصفاء الذهن. قد كدّر علي هذا الأمر أياماً من حياتي, حتى فرغت إلى عزاء قانونيّ مفهوميّ؛ فإن ما لديّ ليس الاستعداد, بل القدرة؛ فالفعل يبرهن تلك القدرة, لكنه لا يبرهن على استعداد التكرار؛ فالفاعل يشير

إلى فعله, لكن الفعل لا يشير إلى فاعله. المزاولة هي أساس الدوريّة. إن قتلت, يجب عليك أن لا تسمح لهذا أن يحولك إلى قاتل. عليك بالطبع أن تواجه عواقب فعلك. لمَ أقول لك هذا؟ لأنه، وعلى الرغم من أنّي لم أعد ذاك المخادع الجنسيّ على الرغم من إمكانيتي على أن أكونه، فإنّي أستحق العقاب الذي يختاره ذاك الابن لي. ربّما لا يكون ذاك العقاب سوى توبيخٍ وتهديدٍ أجوف, كما كان في المرّة السابقة، لكنّه حين يظهر مرّة أخرى على عتبةِ بابي, فسأحرّضه على ضربي, وحتّى على قتلي وإن استطاع ألّا يحوله ذاك الفعل إلى مجرم، إلى فاعله، فيغفر لنفسه, ويتفهم مغفرتي لنفسي, فيصفح عنّي بالتعدّي.

(عدّل جلسته على الكرسيّ) دعني أعود قليلاً للإشارة إلى نهاية تلك القصّة التي كتبها. لقد شرح تلك النهاية من وجهة نظر الراوي بوصفها "انبعاثاً فراكتالياً".

لن أحاول تعريف ذاك الاصطلاح الأخير بمنحاه الفيزيائيّ البحت, فذاك فوق طاقتي؛ أمّا فلسفياً فهو تماماً ما أشرت إليه سابقاً بأنه الرجوع الدائم للذات، أي هو تكرار متراكب للسيرورة نفسها, ينتج نظاماً أكثر تعقيداً وأكثر تمثيلاً للجوهر وتوفيراً للطاقة, وكلما ازداد هذا التكرار قلّت التنبؤيّة الهندسيّة بما يلي. وهكذا فقد استطاعت تلك الشخصيّة البطوليّة أن تختزل نفسها وتجلّيها ذاك وجوديّاً, لتصل إلى جوهرها ثم تعيد الانبعاث منه إلى شكلٍ آخر من أشكال الحياة, صورة ناموسيّة عن الكون أكثر تطوّراً من صورنا البشريّة. أظنّ هذا تحليلاً ممتازاً لفلسفة الانمساخ والتسامي الأدبيّة. في قصص الأطفال، حين تدرك الساحرة الشرّ في نفسها، تستحيل بشكلٍ مباشر إلى مخلوقٍ دميم، وحين يدرك كافكا وحشة العزلة الإنسانيّة الأصيلة في ذاته فإنّه يستحيل مباشرةً إلى حشرة، وقد يظهر جناحا ملاك على شخصيّة مقدّسة بعد خيرٍ أصيل أحسنت به. إنه سعيّ دؤوب ولانهائيّ للتناظر بين الجوهر والتمثيل، وهو سيرورةٌ خطرةٌ باتجاهين؛ فكلّما تعمّقت معرفتك بنفسك تغيّر التجلّي المصاحب لها، حتّى ينطبقا مجازيّاً. لكن الكسل والانهزامية البشرية تجعل ذاك الانبعاث أمراً خطيراً, إذ إن التوقف في منتصف سيرورة المكاشفة وتقرير الجوهر بلامبالاة

استسلاميّة هو ما يجعلنا عرضةً لتبنّي الفعل بتكراريّة ونسبه للهويّة.
(أرخى رأسه إلى الوراء وتنهّد بتعب، وامتنع عن الكلام مدّة وجيزة كأن شعوراً بعدم جدوى الحديث عن دخائل نفسه لآدابار قد واتاه دفعةً واحدة. لكنّه استطاع أن يجد عزيمة جديدة) أتعلم, إن للمجازات سحراً قويّاً, لكنّه يذوي بسرعة في معظم الأحيان. هذا هو الفرق بين الشعر الهزيل والشعر الحقّ. ليست الركاكة والبلاغة هما المقياس فقط، ولكن إيمان الشاعر, إيمانه بكامل كيانه أن ما ينظمه هو مرادف شخصيّ بديل للواقع الموضوعي، وقدرته على منحنا تجربةً وجوديّة, وليس تجربةً أدبيّة متكلّفة تتملق الذائقة الفنيّة دون أن تدانيها. المجاز الأصيل كالإيمان الحق, يتجدد دون قرائن ماديّة. هل يبدو ما أقول غامضاً؟ لا أدري, لا بدّ أن الإرهاق قد نال مناله منّي. لكن اسمع, اسمع؛ سأضرب لك مثلاً في متن الترّهات: "همت فوق قبري, لأبحث في الدموع المنسكبة فوق ثراه عن أعمالي, غير المنتهية، أشفقت على نفسي فوضعت وردة..." (ثم انفجر في الضحك)، أترى ما أعنيه؟ ما أشدّ كرهي لأولئك المدّعين. إن ما قلته فيه وهم الفن, لكنّه...
- جثّة هامدة (أجاب آدابار ببطء لخدرٍ في فكّه).
-(فزع قاف لوهلة, لكنّه استبشر) نعم, تماماً. لقد أجهضت تراكيب لغويّة على مسمعك لا أكثر. ليست من كنهي بشيء, لذلك فقد ولدت ميتة. وما يثير حنقي أن معظم فناني عصرنا هم من "الواضعين", ذوي قريحةٍ سقيمة أقرب للعقر منها إلى الإنجاب.
إن من الكنايات الأقرب إلى قلبي في وصف سيرورة ولادة فكرة جديدة هي "تمخّض". وهذا ما ينبغي على الفنان أن يعانيه، أن تتمخض كامل روحه عن فنّه، أن يتألّم ويتألّم ويجهد ثم يبعث الحياة في خلقه، لا أن يحاكي ألماً ما, دون أن يتشاعر معه ويعيشه. إنه لا يعذبهم، يرتدونه حين يعتلون خشبتهم، يستشهدون مسرحيّاً عليها، ثم يعودون أحياء بعد إسدال الستار. نعم, إنهم تماماً كذلك، شهداء مسرحيون. أعجبني هذا التعبير حقّاً، (نظر بزهو بريء,

مضحك ببراءته، إلى آدابار، ثم بدا عليه بعض الخجل) لا أقصد أنّه يعجبني لأني من توصلت إليه, أو لجماليّة خاصة به، لكنه يعبّر تماماً عمّا أسلفت شرحه، ألا تظنّ هذا؟ (أومأ آدابار رأسه بالإيجاب تعلو وجهه ابتسامة غير متكلّفة)، أعني أنا لا أخجل من إعجابي بنفسي بطبيعة الحال، أو فلْنقلْ من فخري بنفسي, وامتناني لها؛ فأنا أسديها ما تستحق, ولا أنكره عليها. إنّه موقف موضوعيّ من ذاتي، لكنّي لا أتمرّغ عجباً وصلفاً بها. آه, لقد قطعت سلسلة أفكاري بنفسي مرّة أخرى، فلنعد إلى شهادتهم المسرحيّة, التي تدرّبوا عليها مراراً وتكراراً؛ شهيد العشق, شهيد المساوة, شهيد النضال؛ وهو حيٌّ يرزق بيننا - قهقه - فارس الحب, والثورة، وهو لم يبذل سوى الكلمات. إنّهم مناضلو القضيّة الفخريون. لا, بل إنّهم مناضلو القضيّة حين تكون تلك القضية أدبيّة نظريّة بحتة.

إن هؤلاء الفنانين يذكرونني أيضاً بـدفاتر الكولاج التي يحتفظ بها تلاميذ المدارس, ليلصقوا على صفحاتها ما يعجبهم من قصاصات, وطوابع, وأوراق شجر، وكل ما يمكن إلصاقه. ليسوا إلّا جامعي كلمات مزخرفة, يلصقونها سويّةً لخلق وهم الجماليّة (توقّف لحظة وقد اتسعت عيناه لخاطرةٍ واتته)، أذكر الآن إحدى المسوّدات التي تركها صديقي الكاتب، أعني ذا الإصبع الملعونة. كان يدعو فعلهم بالديكوباج الملحمي (قهقه قاف وقد التمعت عيناه بذكرى روح صديقه)، أتعلم ما هو الديكوباج؟ إنّه فن تزيين؛ أن تلصق قصاصات تعجبك على قطعة فنّيّة جاهزة. وهذا يفعله هؤلاء؛ عندما يعجبهم ألمٌ معيّن فإنهم يقصونه, ويلصقونه على صدورهم، كحملة تسويق لشخصهم, لا لفنّهم، أو أن يضعوا مأساة ما خلفيّة لصورهم وشِعرهم. صدقني إنها بطولةٌ مُمنتجة, لا أكثر. يقحمون شخوصهم على التراجيديا, ليتعيّشوا على فتاتها. طفيليون على المشاعر الإنسانيّة يستدرون التصفيق بما تستوجبه المأساة من حزن وتعاطف. (نظر إلى وجه آدابار وابتسامة تعلو شفتيه) كان يمتلك رهافة اصطلاحيّةً حذقة، أعني صديقي ذاك. أظن أن سبب هذا هو أن ذاكرته تجريديّة, ليست وصفيّةً

تخصيصيّة. كان سريع النسيان وقليل الملاحظة فيما يخص الأسماء والأرقام والتفاصيل السطحيّة مثلاً، أمّا فيما يخص المعادلات والأنماط والمجازات ,فقد كان لمّاحاً مستظهراً. في الغالب لأن في الأخيرة نوعاً من التشاعر مع الوجود. كان ضعيف الجسد, متخبّط الذهن في صغره، لكنّه استطاع بتجلّده أن يتدبر أمر هذا الضعف والتشوش؛ بحسب ما قاله لي طبعاً. قال لي أيضاً, متنبّئاً بنهايته, وبنهايتي: "ستدركنا الانتروبيا، ستدركنا هكذا دفعة واحدة. أسبوع واحدٌ فقط تنهار به عقولنا, ثم أجسادنا، دون إرهاصات ترصد النهاية". أتعلم أنّي أصدقه! فهكذا تنهار النُّظُم. ليس بالضرورة أن يكون احتضارها ظاهراً، قد يكون خلاليّاً شَواشيّاً.

(بدأ آدابار يحاول تحريك فمه ببطء, مُنبِئاً بهمّه بالكلام، فصمت قاف ليعطيه فرصة للحديث).

العبور السادس: هو وعواقب الكينونة

-١

حين نطق آدابار نطق بالحقّ فقال:

- بعد أن ارتكب جريمته توجّه إلى مقعدٍ في طرف الحديقة أراد الانهيار عليه، لكنّه لم يفلح بالوصول إليه، كاد لكنه لم يفعل، فارتمى على الأرض بجواره ومِديته الدامية بيده، لم يفكّر بـ...

قاطعه قاف، وتعجّبٌ مرتابٌ يعلو سحنته:

- عمّن تتحدث؟

أجاب آدابار بحسم:

- عنه هو.

أراد قاف أن يسأل مرةً أخرى لكنه قرر بعد ترددٍ الالتزام بالصمت والاستماع. فتابع:

- لم يفكّر بإخفائها, لكن لم يلحظها أحدٌ في تلك الظلمة الكالحة الماطرة. وضع رأسه بين ركبتيه وأطرق يهيم بعقله فيما اقترف. كان يؤمن أن محدوديّة وقته على هذه الأرض لا تسمح له بإمكانية تزييف مشاعره عن نفسه؛ فحين رآك في المقبرة شعر بالغيرة التي أقرّها لنفسه مباشرة دون أن يراوغ ذاته وكبرياءه، وحين بدأ ببساطة وغضب مكبوت الحديث إليك تحوّل ذاك إلى احترام. بالطبع قد أخبرك لاحقاً بهذا، وأخبرك أن الغيرة كانت نابعةً من عدم شعوره بالعدل, الذي استحال إلى إجلال حين استشعر عصاميّتك من شغفك. ذاك الاستبطان والصراحة مع الذات هما ما كان قد استولى عليه في تلك اللحظة حين قرفص على طمي الحديقة. كان شاعراً بارتياح كبير لهتكه روح قاتل أم الجدائل، لكنّه علم بما هو قادم, علم أن الشعور بالذنب سيغمره قريباً دون أن يستطيع فعل شيءٍ حياله. إنها مسألة وقت قبل أن تتلقفه خطاطيف ذاك الجحيم الداخليّ. رهافته الاصطلاحيّة لم تكن ناتجة عن ضعف ذاكرته الشيئيّة واضطراره لإبداع كلمات جديدة تصف التفاصيل الوجوديّة التي يقع

عقله عليها فقط, بل كانت هوساً مرضيّاً بتحليل الأمور إلى أصغر تفاصيلها وأعقد دقائقها ثم إعادة وصلها مع نمطها المقتبس منها. نعم, لقد كان ماهراً في استبطان نفسه بشكل شبه تلقائيّ، إذ كان يعلم حق العلم أن عدم قدرته على ترك الأمور تجري في سبيلها, والقبض عليها بكل ما يملك كيانه من أفكار ومشاعر، هي مسألة بقاء بالنسبة إليه، ذلك أنّه حين كان في الخامسة من عمره هاج به فرسٌ كان يركبه, وعلم حينها أنّه لو أرخى يديه لسقط وتحطم على الأرض أو تحت حوافر الفرس. حين يفكّر بترك الأفكار في عقله في حال سبيلها فإنه يستطيع أن يسمع صهيلاً متوحشّاً، فتشتدّ قبضة هوسه عليها. كان عقله يفكك الأمور لدرجة أنّه لم يكن قادراً على فهم الشعر، بل إنه كان يؤلمه. استطاع ترويض ألمه في أواخر سن المراهقة. لم يعد يقاوم الألم، كان يدع نفسه تسقط عن صهوة الحصان في عقله. أيّ ألمٍ كان يشعر به! هذا ما جعله يدقّ إصبعه بالمطرقة؛ إذ إن ألماً بلا جرحٍ هو ألمٌ بلا أملٍ بالشفاء. المفارقة أن إصبعه أيضاً لم يشفَ بتاتاً (ابتسم قافٍ بوهن عند هذه الملاحظة)، خلق نظاماً في عقله, فكان يراقب الألم، يشعر به، لكنّه في الوقت نفسه وضعه تحت سيطرته. خلق عالمين في أناه دون أن ينفصم عن أيٍّ منهما. احتاج إحقاق هذا التوازن إلى شكيمةٍ عظيمة. لكن على الرغم من ذلك فإن عقله لم يكن منيعاً تماماً ضد السقوط والذكريات. شجّع النسيان في ذاكرته فيما يتعلّق بالأشياء, لكنّه علم أنّها ستنال منه وتنقلب عليه حين يضعف تركيزه. وقد أفقدته جريمته تركيزه. لا, لم يكن يشعر بالذنب من فعلته في تلك اللحظة بجانب مقعد الحديقة، بل بالخوف من ضياع عقله، بالخوف من عدم قدرته على المغفرة ولا حتّى لنفسه, فالمسألة، كما شرحت لك، مسألة بقاء.

-٢

كان له فكرتك نفسها عن المصادفة، على الأقل في أحد أطراف عقله، أما في طرفه الآخر فقد كان سريع الارتباط بها, أي بالمصادفة لم يكن يؤمن بشيءٍ

محدد على الإطلاق لكنّه كان يجد في التناظر قداسةً جماليّة؛ فحين ينظر إلى الساعة ويجد منازل دقائقها متساوية مع تلك التي لساعاتها, يسارع إلى ضمّ يديه وفردهما. ليس مقلداً أي دين من الأديان، المهم أن يجعل من نفسه شكلاً متناظراً, ثمّ يُودِع أمله في تلك اللحظة.

لذلك فلك أن ترى كيف تعلّقت به واقعة أن جثّة أم الجدائل وُجدت في نفس المكان الذي قابلها فيه أوّل مرّة. لقد تثبتت تلك المصادفة في مؤخرة عقله كعلقة شرهة، شعر أن الكون بعث له بعلامة يوكله بها تلك القضيّة. لم يعد يبحث عن القاتل بعينه, بل عن قدرة القتل، عن الجاذب أو النمط. لم تعد تهمّه القرائن الماديّة بتاتاً, على الرغم من أنه سخرها في مخيلته ليُكوّن جاذباً يمثل القاتل.

أتذكر؟! لقد قلت له مرّةً ألّا ينكر فطرته الحيوانيّة، بل أن ينميها ويطوّرها, فيدمجها مع عناصر وعيه الإنسانيّ ليخرج بحدسٍ متفوق جديد؛ أليس كذلك؟ (أجاب قاف والذهول يعلو وجهه) بلى, بلى. قد قلت ذلك، أقسم أنّي قد فعلت.

بدأ يبحث عن القاتل بتلك الغريزة الفائقة. أنهكته الأفكار في تلك الليلة, فهجع إلى سريره مبكّراً. لكنّه استيقظ قبل منتصف الليل بكامل تركيزه وقلبه يخفق. نظر إلى ساعته فكانت ساعة تناظر. علم أن عليه الذهاب. علم أن الكون سيبعثه في مهمّة قصاص الآن، فوضّب مديته، وهرع إلى مكان مسرح الجريمة. حين وصل وجد شخصاً هناك، تحرّك الرجل بسرعة حين سمع صوت خطوات قادمة. لم يكن في تسكّعه في ذاك المكان بعد تلك المدة على مقتل أم الجدائل ما يثير ريبة العامّة والمشاة؛ إذ إنه لم يعد أحدٌ يذكر تلك الحادثة. تبعه إلى حانةٍ في نهاية الشارع وولج خلفه. جلس في ركنٍ مظلم وبدأ يراقب إيماءات ذاك الشخص وأقواله. شاهده وهو يعبث بأنفه بإصبعه, يخرج المخاط ليمعن النظر فيه بشيءٍ من نشوة ثم يرميه بلا اكتراث بأيّ اتجاه،

كان هذا كافياً لفراسته لتحسم قراراها. إنّه هو القاتل بلا ريب. خرج دون أن يلفت الانتباه, وبقي ينتظر هناك تحت المطر. انتظره حتى خرج. لم يكن ذاك الرجل قد سكر سكراً تامّاً, بل بدا منتعشاً. لحقه صديقك بحذرٍ لدقائق, ثم اقترب منه وجذبه من يده. كان يرتعد من البرد والغضب. صاح بوجهه: "أنت من قتلها، لقد شاهدتك، إنه أنت".

ذهل الرجل للحظة, لكنّه آب إلى صوابه فدفع ذا الإصبع المشؤوم بكامل قوته حتّى كادا يسقطان معاً، ثم سارع بالركض. ركض صديقك خلفه, وكان سهلاً عليه أن يواكبه وهو صاحٍ تماماً. أخرج مديته وضربه في رقبته، فخرّ ذاك الرجل ساقطاً على الأرض. لم تخْبِ تلك الطعنة غضبه فأراد أن يطعنه مرةً أخرى, لكن ما إن لامست السكّينة جلد الصريع حتّى شعر بالخوف يملأ جسده, وبالفراغ يمتص الروح من صدره. ابتعد عن الجريح ثم ركض باتجاه منزلك أنت، إلّا أن إرهاقه أدركه قبل خطوة واحدة من ذاك المقعد فانهار على عجيزته، وبقي ساكناً لساعة من الزمن حتّى حسم أمره, تقتاده هلوساته إلى داره هو. حين وصل هناك اكتسحه الألم دفعةً واحدة, فبات يتلوى على خشبيّة الغرفة دون أن يجد ما يمكنه أن يخلّصه من ذاك العذاب. لم يكن بكامل وعيه حين أمسك مديته مرّة أخرى وبدأ بطعن إصبعه ذاك حتى انفصل عن قدمه.

أشعره الألم البدنيّ بتحسن وصفاء ذهنٍ محدود، مكّنه من مداواة نفسه، وتنظيف الأرضيّة كروتين استشفائيّ، ثم تحنيط إصبعه بذاك المحلول, وتوضيبه بشكل لوحة فنيّة لك, لتفهم ما حصل ولو بشكلٍ مجازيّ. وهكذا وجدته في اليوم التالي.

(كان كلاهما في هذه اللحظة ينظر إلى الإصبع في المرطبان).

بالتأكيد كما استنتجت بنفسك, فإنّه لم يغفر لنفسه. لم ينتحر, لكنّه أعدم نفسه وجوديّاً. قرر أن يتسبب لنفسه بإعاقة نفسيّة، قرر حبس ذاته في داخل جسدٍ ذاهل، يشاهد الحياة من كرسيّ متحرّك مجازيّ. لجأ إلى ما أسماه دير الرتابة والضجر.

- إذاً هو لم يقتل نفسه (نهض قاف صارخاً بابتهاج, لكنّه تدارك نفسه)، حتى لو صدقتك, فغالباً قد مات الآن بعد كل هذه السنين.
- لا, ما زال حيّاً في ديره العقليّ.
(تنفّس قاف ببطْء وحماس وبعض الخشية) كيف علمت كل هذا؟
أجاب آدابار:
- ليس السؤال سؤال كيف، بل سؤال من. أنا رسول الطبيعة, بل الوجود إليكم، لأقضي بكم معشر البشر. لك أن تصدقني, ولك أن تكذبني إن شئت.
- قد رأيت السماء تموج كالبحر قبل أن تسقط منها. ولو لم يصطدم وجهك بأفرع تلك الشجرة العجوز, ما أظنّك قد تأذيت على الإطلاق. لا سبب لي لأصدقك, ولا عذر لأكذّبك.

-٣
صمت قاف. أراد أن يشرح شيئاً لآدابار, لكنّه احتاج بعض الوقت ليتدبّر شتات أفكاره :
- في الحواسيب هناك ما يُدعى بالذاكرة عشوائيّة الوصوليّة، ذاكرة مؤقّتة، تُمحى بمجرّد انقطاع الطاقة عنها, ومهمتها إتاحة مساحة تفاعليّة للبرمجيات العاملة، ولا تعتمد التسلسل للوصول إلى مكوّناتها. (تنهّد بعمق) ما أريد أن أقوله لك هو أنّ روحي تملك شيئاً مرادفاً لهذا، ادعُه إن أردت إيماناً عشوائيّ الوصوليّة. سأصدق الآن ما تدّعي, وحين تكفّ عن ادعائك سأقبل البديل أيضاً. حين تكون أمام عينيّ فأنت معجزة الوجود, وحين تختفي عنهما فسأذكرك كعابر سبيل. أتفهم ما أعني؟ إيمانٌ مؤقّت غير ملزم.
- إيمانٌ أبيض (ردّ آدابار)، هذا ما يسمّيه صديقك الكاتب الآن, وهو ما يحاول عيشه. ذاكرةٌ إيمانيّة قصيرة الأمد.
إيمانٌ أبيض (ردد قاف) بالتأكيد, إنّه يشير إلى الضوضاء البيضاء، تلك الضوضاء تكرارية التردد التي تُغطّي استشفائيّاً ضجيج الحياة اليوميّة، صفير صراصير

الليل،و صوت تساقط المطر،و تلاطم الأمواج. نعم, قد أحسن في هذه التسمية؛ إيمان استشفائيّ للروح البشريّة, دون أن يقيّدها ويشلّها. هذا هو ما أعنيه. لك أن أؤمن بك إيماناً أبيض. (صمت قاف) هل تسمح لي أن أسألك عمَّ عليّ أن أناديك به؟

- آدابار؛ هكذا سمّاني صوت نبيّ ذاتي، وهذا ما أقرته الطبيعة حين نادتني به.

- حسناً. آدابار. هل.. هل وصلت إلى حكمٍ ما؟ (سأل قاف بنبرة تردد).

- ليس بعد، فبالكاد بدأت مرافعتكم، لكنّي أعدك أنّي سأنطق الحكم هنا في دارك، بين شهود من بعض دركات هذا القاع. عليّ أن أتردى مزيداً من التردّي هنا.

سُمع طرقٌ على الباب في هذه اللحظة قبل أن يتسنّى لقاف السؤال عن كنه أولئك الشهود، وإن كان قد وعى مقصد آدابار في وصفه للبشريّة.

تلكّأ قاف في الوقوف, ثم سأل رفيقه أن ينضم إليه في الصالة الرئيسيّة، إذ لم يرد أن يتركه لوحده هنا بعيداً عن عينيه، لم يرد بعد أن يبعده عن إيمانه عشوائيّ الوصوليّة.

العبور السابع: زائرةٌ من أنشودةِ العُرفيّين

-١

استمر الطرق على الباب حتى وصل قاف إليه وفتحه، كانت تقف عند المدخل عجوزٌ قصيرة محنية الظهر, انفرجت ملامح قاف لرؤيتها، أطلق ضحكة صغيرة ثم عانقها بقوّة.

قالت العجوز بمودة يشوبها ألم مكبوت:

- تكاد عظامي تتهشّم بين ذراعيك, هيّا كفّ عن هذا، أقسم أنك قد اكتشفت إكسير الشباب، وأقسم لأن كان هذا حقّاً لأقفزنّ على هذه الكرسي, وأنكبّ على صفعك حتّى تشاركني إيّاه.

(التفت قاف إلى آدابار) انظر من خَتل سجّانيه وفرّ من حلقة جحيمه إلى حلقتنا؛ إنها الأخيّة. بت تعلم أنها تصغرني بأعوام عدة لكنك كلما أوغلت في حلقات الجحيم بدا العذاب بادياً على الجسد. إنها من أنشودة أخرى غير أنشودتنا.

(تجاوزت قاف ببطء, وبنفاد صبر) نعم, نعم، أنا من أولئك الذين يعيشون من أجل أفكار الآخرين ويموتون بين قططهم. ألم تملّ بعد من هذرك؟! قلّ لي الآن أي خلطة تجعلك تبدو أصغر منّي بثلاثين سنة؟ (تهاوت على كنبة في وسط الصالة).

(أغلق قاف الباب خلفها) أرأيت, إنّها من أولئك المتطيّرين، المؤمنين بالحلول الإعجازيّة ذات المقادير السحريّة.

ثم التفت اليها:

- ثمّ إني جادٌّ كل الجدّ حين أتهمك بالخيانة الحياتيّة العظمى, حين تدمنين على الإمعيّة العرفيّة, والوباء الإهلاسيّ المجتمعيّ وتدينين أحلامك الحقّة, أناك الحقّة باللاواقعية، وتنفينها إلى رفوف الذكريات المؤنسة, وحكايات ما قبل النوم.

نظرت إليه الأخية دون اكتراث:
- ما أشد حميميّة ترحيبك! قد أشعرني خطابك حقّاً أنّي في منزلي.
قهقه قاف:
- تحبّين أن أشعرك بهذا الندم، فبعد أن خبا شبق جسدك, هذا أقرب شيء تملكينه للذة؛ الشعور بالذنب. لا تنكري هذا.
صمتت العجوز للحظة:
- يبدو أنك غاضبٌ عليّ اليوم أكثر من العادة.
ارتبك قاف بخجل:
- لا, اعذريني، ليس عليك تحديداً، لكنّه حنقٌ عام.
غاصت في الكنبة أكثر:
- لا تقلق، قد اعتدت سماجتك، لم تعد تؤثّر بي كما في السابق، لكن ليس أمام ضيفك الذي لم تعرّفني عليه بعد.
ذهل قاف, وكأنه قد ذكر رفيقه بعد غفلة طويلة:
- آه, إنّه أحد أصدقائي, ويُدعى آدابار، سيقيم في منزلي لفترة حتّى يحسم أمره في موضوع جديّ الأهميّة.
ابتسمت له محييةً, ثم التفتت مرة أخرى إلى صديقها القديم:
- كيف لم ينحنِ ظهرُك إلى الآن أيّها الخالد؟! بالكاد أستطيع رفعه بضع لحظات.
أجاب: الأمر بسيط لكنّ ذكره لن يعجبك.
صمت لحظة:
- أتعلمين؛ لا فرصة خيرٌ من السؤال لإخبار الحقيقة، فلْأخبركِ إذاً!.

-٢

أنتم العرفيّين ورثة عذاب سيزيف الأبديّ، قد فُرض عليكم رفع العبء المجتمعيّ على أكتافكم, وحمله إلى قمّة لا مغزى لها؛ بل أجرؤ على القول إنه

لاوجود لها, إلّا في زور آمالكم. ذاك الجهد والتعب يوهمكم بالجدوى والغايّة، ذاك التفاني القطيعي لإعلاء صخرة الثُّغاء. كم منكم سقط وسُحق تحت ذاك الحمل دون أن ينظر إليه بعين النقد والتشكيك مرّة واحدة! أنتم شهداء الشيء أو ضدّه، شهداء السقوط والانحدار وجنوده.

إنكم خالقو القيم الزائفة، وثنيّون معاصرون. حملتم آلهتكم وشرائعكم وأعرافكم على ظهوركم, لتصعدوا بها إلى أمجادكم الأرضيّة والسماويّة, وخذلتم العبء الإنسانيّ الذي كان ليكسبكم الخلود.

أصيخي السمع إلى ارتطام تلك الصخور فوق رؤوسكم بعضها ببعض. نعم, إنّه ضجيج الأشباه الذي أصاب الجمع بالصمم، بداء غياب البداهة، بالبداهة العامّة السقيمة. انحتوا على أحجاركم ما شئتم, واختاروا الوجه الذي تريدون لمعبوداتكم، فهي لن تفتأ صمّاء كذواتكم المستسلمة للانجراف.

أنتم يا من اخترتم عبء المادّة على عبء الإنسان، أنّى لكم أن تشْكوا انحناء ظهوركم وقد قايضتم أرواحكم وصوت ضمائركم بصرير أفواه الآخرين يدوّي في فراغ أفئدتكم؟! لا, لا خلود لمن لم يفارق درك هواه, وركن يقينه. ارقدوا في فنائكم أيّها المأفونون, فلا بعث لأسمائكم في ذاكرة الإنسانيّة الفائقة, ولا ريح لكم في أفق الإنسانيّة القادمة. آه, ها أنت تبتسمين! تظنّين أنّي أهرّج أمامك, وأحاول العبث لتسرية الوقت.

وصل قاف إلى حالة هياج نفسيّ، وبدأ ينقّل ناظريه بين الأخيّة وآدابار، حتّى استقرّ نظرُه على الأخير:

- وأنت يا مبعوث النهاية، اجمع شهودك وأطلق حكمك الختاميّ علينا، على الجميع، لكنّي أقول لك منذ الآن لئن خيّرتني البقاء دونهم ما قبلت، أريد الهلاك معهم إن كان هذا نفيرك الأخير، أريد لصوتي أن يتردد في آذانهم حتى يستحيل حشرجة تغرق معهم إلى قعر الوجود، أسجّيهم على دفّة النسيان وأعود إلى خلودي.

ثم انهار على ركبتيه أمامه:
- أتعلم ماذا؟! بل تبّاً للخلود. إنها ثورة حياة لا ثورة موت. لستُ نبيّ الإنسانيّة القادمة لكنّي أعدك وأبشّرك بها. دعنا نحيا يا صور الموت والبعث. دعنا نكفّر عن الموت الذي كنّا سببه بحيوات نخلقها.
وضع آدابار يده على كتف قاف:
- أقسم لك يا صديقي أن أكون عادلاً، فانهض الآن على قدميك، فشهود النهاية على وصول.

-٣
شُدهت الأخيّة من هذا المشهد, لكنّها سرعان ما عادت إلى صوابها :
- أقسم لك أن جنونك لم يزد ولم ينقص، ربما كان هو سرّ شبابك. (غاصت أكثر وأكثر في الأريكة) أوَلا نحصل على شيء ساخن نشربه؟ لم أعهدك مضيفاً سيئاً؛ ثرثاراً بلى, ولكن حتماً ليس بخيلاً (ثم قهقهت)، ثم مهلاً قلّ لي, قد استهزأت منذ هنيهةٍ بالمقادير السحريّة، أوَلم تكن تردد سابقاً شيئاً من قبيل البركة الذهبيّة، لم أعد أذكر, لكنّي أقسم أنك كنت ملتزماً بها.
عاد قاف إلى هدوئه, ورسم ابتسامةً على وجهه:
- تعنين بركة فاي, أليس كذلك؟ ليست أمراً سحريّاً، إنّه استثمار اقتصاديّ متكرر للطبيعة في النسبة ذاتها، وقد سخّرتها بنفسي في استثماراتي الحياتيّة والاقتصاديّة. (التفت إلى آدابار) إن للطبيعة دأباً ادِّخارياً كما سلف وذكرت لك, هكذا تحاول حفظ نفسها ضد البدد؛ فعندما يتضاعف حجم المتعضيّة فهي لا تحتاج لضعفيّ الطاقة والغذاء، وإلّا فهي مشروع فاشل ستتخلص منه الطبيعة. قل لي إذاً, أفي هذا سحر أو تطيّر؟.
اقترب ووضع يده على رأس العجوز بودّ:
- أيتها العجوز, تحاولين دوماً تشويه الحقائق بجهلك وتسرّعك في إطلاق الأحكام. ألوم مجدداً مرجعيّتك العرفيّة.

صمتت الأخيّة, ثم نظرت إلى قاف:
- ليس عليّ أن أبرر حياتي أمامك.
- لا ليس عليك فعل هذا، لكن عليك أن تبرري نفسك أمامه، (أشار إلى آدابار) إنّه الدينونة متجسّدة. قد ركعت أمامه من أجلكم. أقلّ ما يمكن لك فعله هو أن تعترفي بضعفك له وتطلبي منه الصفح.
نظرت العجوز بهزء:
- يبدو أن عقلك لم يسلم من الشيخوخة, أيّ تخريف تتفوّه به؟!
لم يملك آدابار إلّا أن يتقدّم نحوها ويمسك يدها بحنوّ:
- انظري جيّداً في عينيّ.
فنظرت, ثم أطلقت صرخةً مدوّية:
- آه قد ومضت في عقلي أهوال البشريّة دفعةً واحدة: حروبنا، خياناتنا، شرورنا من ألفها إلى يائها. أصواتنا لم تكن إلّا موسيقى جنائزيّة للحياة. ما أشدّ خيبتي وأتعس قراراتي وغاياتي! قد هجرت أحلامي, وتركتها أطلالاً، تخلّيت عن الحبّ في سبيل هوى الحياة، ضحيت بالخلود قرباناً للمجد. ما أتعسني! كيف تراءى لي تدافع الناس على نفس الطريق هدفاً لأقدامي؟ لم أكن يوماً سوى جثة تحركني الأعراف بلا إرادة حرّة، دمية للشرائع والقيم الجمعيّة. لم تكن حياتي درباً، بل نقاطاً أقفز من إحداها إلى أخرى, لأجدها سراباً فأتابع القفز. تباً لنفسي المستنسخة, وسحقاً لنعيقي الببغائيّ.
حاولت الوقوف والخروج من أريكتها، لكنها وقعت على الأرض، فزحفت على بطنها باتجاه آدابار مادّةً يدها:
- خذ هذا الألم عنّي.
انحنى عليها آدابار دون أن يساعدها على الوقوف:
- بل دعيه، إنّه هبتي لك!
ثم ابتعد عنها نحو الباب, فتحه وخرج.
لحق به قاف, لكنّه كان قد اختفى تماماً عن الأنظار.

العبور الثامن: دير الضجر

-١

يقوم اختبار تورينغ على تحديد إمكانيّة آلة على محاكاة الإجابات الإنسانيّة, وعدم قدرة السائل على التمييز بينها وبين الوعي البشريّ. تُدْعَى تلك التجربة بلعبة المحاكاة, والتي استوحيت منها في بداية روايتي لهذه القصّة اختباراً آخر، ولْنَدْعُه "عتبة التشاعر".

كان بإمكاني أن أجعل سردي أكثر سلاسة وأقل تعقيداً, إلّا أني أردت أن أُخرِج وعي قارئي من محاكاة البداهة العامّة البليدة إلى تجاوز حدّ التشاعر, حيث يستطيع أن يدرك ذاته، ليس فقط في أفكار الشخصيات، ولكن على الرغم منها. فالوعي المعاصر يواجه عقبة آلية السلوك, ألا وهي التماهي الانهزاميّ مع الحسّ العرفيّ. وأنا لم أصف هذا الحسّ بأنّه وعي فأصفه بأنه وعيٌ عرفيٌّ، إذ إن في تركيبٍ اصطلاحيٍّ كهذا تضاداً تهافتيّاً فكلمة "عرفيّ" توحي لي ببعديّةٍ ميكانيكية ذات اتجاه وحيد، أما "وعي" فتشعرني بالإرادة الحرّة وقدراتها الإبداعيّة. والحد بين التقليد والوعيّ, أي ذاك الحدّ الذي وصفته منذ قليل, هو الذي أردتك عزيزي القارئ أن تتجاوزه. قد يبدو هذا نوعاً من التلاعب السلوكيّ المتعالي, وأنا أعترف أنّه من الإنصاف أن يؤخذ عليه هذا المأخذ, ولست بصدد أن أدافع عن أحقيّتي في أمرٍ كهذا، لكنّي أظنّ أنّه سيكون من المفيد التصريح وعرض دوافعي, والتي هي في موجزها تكفير عن الذنب والغياب.

فبعد أن طعنت ذاك الرجل في رقبته ولعنت العالم أدنت نفسي وحكمت عليها بالزهد في دير الرتابة. مَكْنَنْتُ روحي, حتى بِتُّ أستطيع سماع قرقعة مسنناتها. اخترت لنفسي عملاً بسيطاً مناسباً لحياة بلا آمال كبيرة, واستعضت عنها ببضعة محفّزات بسيطة كافية لتزييت عتلاتي حتّى توصلني إلى الغد. لم يكن انضباطاً هادفاً, ولا شغفاً بنّاءً، بل حكماً أبديّاً بالتكرار. كنت أسمع صراخ

روحي في السابق تنسحق تحت وطأة الضجر وعزقاته, لكنّها سكنت فيما بعد كشرنقةٍ اختنق خلقها القادم في داخلها. كلما نبت طموح في ذاتي استأصلته، حتى أصبحت تربةً وعرة ميتة. حكمت على نفسي بالنسيان والتفسّخ الوجوديّ وأنا على قيد الحياة. كان حلّاً سريعاً مخزياً لمعضلة الكينونة. اللعنة على كلّ شيء!.

-٢

كنت أفكّر بشيء سخيف عن الشمس وشدّة حرارتها حين أجفلني طرقٌ على باب شقّتي. هكذا هي الحياة, تباغتك في منتصف فكرة, أيّ فكرةٍ, مهما تفهت أو اشتدت أهميّتها. لا وجود لمونولوجات ملحميّة شعريّة قبل حوادث معيّنة ترهص بها, ولا اقتباسات نهائيّة تتوّج أحداثاً أخرى.

"يا لها من شمس حارقة!"، تصريح من تصريحات الحياة اليوميّة، تبعه صوت طرق على الباب. أجفلني هذا في البداية, فلم أفتحه، بل ولم أتحرك من مكاني. بقيت مصيخاً السمع أنتظر سماع صوت خطوات مبتعدة. لم أكن في مزاج ملائم لقول: "مرحباً"، أو لقول: "من؟". لكن الطرق عاد, فقمت عن الكرسيّ, وجمدت في مكاني, كأني أخبر الكون أن عدم فتحي الباب كان عن سابق ترصّد, وليس طرشاً. رنين الجرس هذه المرّة أفقدني صوابي, فتوجهت إلى الباب وفتحته بعنف لأنبئ زائري بلا كلمات أنّه غير مرحبٍ به.

وقف هناك بثبات وعيناه تحدقان بي بلا هوادة حتى شعرت بعذاب فظيع في صدري. ذكر لي شيئاً كان قد قاله لي قاف منذ أمدٍ بعيد: "قد برهنت البشريّة بشكل دامغ أنّها قادرة على التغيير, وهذه المعرفة تلزمنا لزام عين بمحاولة تغييرها والتسامي بها".

لم أعلم كيف أرد عليه, فأشار بيده أنّه يريد الدخول، فابتعدت عن طريقه ثم أغلقت الباب خلفه ذاهلاً.

تمالكت نفسي وسألته: من أنت؟ لم يجبني، لكنّه نظر في عينيّ، كانتا شبيهتين

بعينيَّ في الماضي, لكنهما الآن نافذتان إلى شيء آخر، فلنقل إنهما نفس العينين بإطلالتين مختلفتين. لم أرد أن أديم النظر, لكنّهما كانتا كمرآة إلى ماضيَّ. شعرت بالألم مجدداً في صدري. كانت روحي تئزّ أقسم أنه قد كان لها صوت يُسمع. اشتد الألم, حتى أسقطني على ركبتيَّ دون أن أنقطع عن التحديق في عينيه.
صرخت في وجهه:
- كفّ عن هذا الآن.
فأدار وجهه, وأفرج عنّي. لكن روحي كانت قد طرحت أغلالها عنها, فسقطت في نوبة بكاء ذي نشيج يُسمع.
حين استطعت السيطرة على نفسي, كررت عليه السؤال:
- قلّ لي, من أنت؟
أجابني بنبرة حازمة:
آدابار.
فخمّنت أنّه لا ينوي إخباري بالمزيد حتّى لو أصريت على الاستفسار.
كان لايزال يحوم حولي حين قال لي:
- أريدك أن تكتب لي.
لم أصدق ما سمعَتْه أذناي في البدايّة, فليس من المحتمل أن يقتحم عليك أحدهم منزلك بهذه القوى الذهانيّة ليطلب منك أن تكتب مجدداً. لكنّه كرر طلبه حين أظهرت عدم تأكدي من فهم مُبتغاه.
- حسناً، عن أيّ شيء أكتب؟
كان هذا هو السؤال الوحيد الذي خطر لي، فلم تكن أسئلة من نوع: "هل أنت مجنون؟ أو هل تعني ما تقول؟" ذات سياقيّة حَدَثيّة. لم تكن هكذا تشكيكات واردة ولو بضآلة. لربّما كان لك رأيٌ آخر لو كنت في مكاني, لكنّي أروي مجريات كياني الذاتيّة في تلك اللحظة.
- اخترتك لتكون كاتب هذه المحاكمة, وشاهداً فيها. سأروي لك الكثير, وأريك الكثير.

- أريد أن أصدقك القول, فذاكرتي ليست تفصيليّة ولا شيئيّة، بل تجريديّة وشعريّة. صدقني سأنسى الكثير, وأشرد عن الكثير. وفي النهاية لن يُكتب سوى تأويلي وانطباعاتي وتحليلي عمّا حدث وسيحدث. صدقني لست بكاتب محكمة.
- غايتي بما مَلَكْت, وليس بما حُرمت، فلا تقلق.
تأملت في وجهه, ثم أومأت برأسي, فبدأ يروي لي قصته.

-٣

إله الزاوية صفر، ذاك الذي لا يُفسّر شيئاً، بل يتوازى مع الحياة، كنت قد شرحته سابقاً, وذكرت ما يُلهمه من إيمانٍ أبيض وإدراكٍ عقليٍّ معلّق. إنها حالة لا تصديق فيها للحقائق ولا تكذيب, ولكن مجرّد قبول لحالة وجوديّة فرضت نفسها عليك. وهي ما تحليت به حين جلسنا على طاولة في المطبخ, يحدّثني وأستمع له.
لا أنكر أن مخيلتي نسجت الكثير على قصّته, وخاطت قطعاً أخرى لم أعد أدري إن كان هو الذي أخبرني بها حقّاً, لكنّي متأكد تماماً أنها كانت من وحي كلماته التي نطق بها في تلك اللحظة.
دعني أوجّه هذا السؤال لك: أتشعر مثلي أن للوعي كثافةً معيّنة؟ وأنّ هناك حالاتٍ تُميّه تلك الكثافة, لتجعلها أخف من الأثير فتشعر بروحك تطير وترتفع عن المادّة؟ حين تَمرُّ أذناك بمقطوعة موسيقيّة معينة, أو عيناك على بيت شعرٍ, أو ذهنك على فكرةٍ أو صورة. أعلم أن انطباعكم عن القصة لن يكون كانطباعي, إذ إنّي سمعتها بصوت الحياة ذاتها، وهذا ما جعل كل ما في منزلي يسبح في الهواء, وأنا من ضمن تلك الأشياء. لم يكن شيئاً مخيفاً أو خارقاً للطبيعة, بل كان حتميّاً وناموسيّاً. بت أتصعّد في الهواء, رويداً رويداً مع كل كلمة يقولها, حتّى ارتطم رأسي بالسقف فسبحت نازلاً.
قام عن كرسيّه وفتح الباب وأمسك بذراعي ليقودني عبره.

لم أميّز على الفور معالم ما وقع عليه نظري, لكنّ إدراكاً مفاجئاً أثقل روحي وأعادها تحت سلطان الجاذبيّة, فوقعت. وقعت في نفس المكان الذي تركت فيه ذاك القاتل مُضرّجاً بدمائه.

تقدّمني آدابار فتحاملت على ساقَيَّ ولحقت به إلى أن وصلنا إلى دارٍ قديمة, مُخلعة، فولج إليها دون أن يستغلق عليه مدخل.

كان يجلس هناك على كرسيّ متحرّك, لم يقوَ حتّى على رفع رقبته, لكنّه تابعنا بعينيه. كنت قد علمت أنّه لم يمت جراء طعنتي له, وهذا ما جعل عذابي أثقل حينها. لكانت مسامحتي لنفسي أسهل لو أنّه مات، لكنّ عذابه أصبح عذابي. تخيلت نفسي منذ قرأت خبر شلله وعدم موته أنّي أعود إليه, لأتمّ ما بدأت، أضع وسادةً على وجهه حتى يختنق؛ لكنّي علمت في نفسي خَوراً على فعل هذا, فآثرت تخيّله كل ليلةٍ قبل نومي وهو يختنق بلعابه. قد سكّنت تلك الصورة عذابي بما يكفي لأنام, حتّى صدقتها في النهاية وباتت حقيقة لا أدري غيرها.

لكنّه حي!

- قد مات في حاضرك تماماً كما تخيّلته (صحح لي آدابار فكرتي).

- لمَ نحن هنا؟ (سألته).

فأشار إلى الوسادة, وقال:

- اخنقه, إنّه الآن مجرّد فكرة، بل شبح فكرة.

أردت حقّاً فعل هذا, فكلّما أطلت النظر إليه زاد ألمي وعذابي حتى بدأت أتعرّق وأرتعش. بدأ البرد يلسعني في مؤخرة رقبتي, وشعرت بحرارة احمرار عينيَّ، لكنّي تقدّمت نحو آدابار وصرخت حاسماً في وجهه: لا, فلْيعش في جحيمي, ولْأعش في جحيمه إلى الأبد.

- حسناً؛ هو ذنبك, فاصطحبه بنفسك.

مشيت ذاهلاً إلى خلف الكرسيّ المتحرّك, وقد غار صدري. جررته أمامي، وفي كلّ خطوةٍ أخطوها أشعر بطعنة تنغرز في أحشائي. استمررت في المشي, وآدابار

خلفي. حالما عبرت المدخل بدأ الكرسي والمُقعد به ينصهران على يديَّ, ليتشرّب ضميري بهما. صرخت من الألم, وبقيت أصرخ حتّى وجدت نفسي أتلوّى على أرض منزلي.

وضع يديه على كتفي, وهمس:

- هو هبتي لك!

لم أعلم ما أقول, فشكرته.

العبور التاسع: رُوّادُ الـ (لمَ لا!)

-١

جلس على كرسيّ بصمت ينتظر نفسي لتهدأ. بدا فارغ الصبر بعض الشيّء, ونزّ هذا عن ارتعاشات مفاجئة متقطعة في ساقيه. وقفت على قدميّ بعد جهد, وسألته قبل أن أكون مستعدّاً حقّاً للكلام فقط لأساير جزعه:

- ماذا الآن؟

وقف دفعةً واحدة, كأنّه رأى في سؤالي إنباءً بجاهزيّةٍ كافيةٍ للفعل.

- نجمع الباقي (قالها, وتوجّه نحو الباب مرّة أخرى، إلى عبور نحو شاهد آخر).

استجمعت قواي, ولحقت به بخطوات متحاملةٍ بطيئة، اتكأت على قنطرة الباب, ونويت أن آخذ نفَساً عميقاً قبل أن أعبر، لكنّي تقدّمت قبل أن أتيح لنفسي فعل هذا, كأنّي أغافل نفسي في منتصف نيّة حتّى لا أجبن وتضيع لحظات في التردد وعقلنة الموقف.

وهكذا وجدنا أنفسنا في نشيدٍ آخر.

-٢

وقفنا في زاويةٍ غير مرئيّةٍ من زوايا ذاك العبور الوجودي، والتي كانت ذات إطلالة شاملة أتاحت لنا فرصة كشف ما أُريد لي معرفته.

جلس ذاك الرجل متربّعاً على بساطٍ أخضر, وقد فرد ذراعيه فوق ركبتيه في وضعيّة تأمّل، أغلق عينيه مستمعاً لموسيقى رتيبة هادئةٍ مصاحبةٍ لصوت خرير نهر دافق. استمرّ في هذا عدّة دقائق, ثمّ فتح عينيه فجأة ونظر إلى بنطاله المنتفخ جرّاء انتصاب قضيبه، وحدّث نفسه ضاحكاً: "لا أظنّ أنّه كان ينبغي للأمور أن تجري بهذه الطريقة"، ثم قفز عن بساطه ليستعدّ ليومه منشرحاً للمفارقة التي بدأ بها صباحه, إذ إن عمله كان يخوّله فهم هكذا

موقف وتقديره.
لم يكن من الكوميديّين التهريجيين, الذين يستعيضون عن أهم عناصر النكتة, أي القفلة، بضحكهم للتأثير على الآخرين وحثّهم على الضحك. كان يعدّ ذاك النوع من الدغدغة الجمعيّة السقيمة كغاز ضحك سام, يقتل فنّ الطرفة.
فالنكتة، حسب رأيه، تتكون من مقدّمة وعرض وقفلة. وفي الغالب تكون المقدّمة استعراضيّة, وليست من الخصائص الأساسيّة للطرفة بحدّ ذاتها, لذلك فإنّه يجمعها مع العرض بخاصّة واحدة يدعوها "المد"، الذي يؤدّي للقفلة الحاوية على مفارقةٍ فَكِهة. وكلّما زادت حدّة المفارقة بين المدّ والقفلة زادت الفكاهة في النكتة, فازدادت إضحاكاً.
كان يشبّه حس الفكاهة حين يشرح نظريّته بحقل الرؤية المزدوج؛ أيّ إنه من الصعب إدراك العمق وثلاثيّة البُعديّة للشيء بعين واحدة, فعلى كلّ عينٍ أن ترى الشيء نفسه بزاوية مختلفة, وتقاطع تلك الرؤيتين يخوّلنا إدراك الفرق، ومن ثم العمق؛ أو كما تعمل النظارات ذات العدسة الزرقاء والأخرى الحمراء, إذ تخوّلنا تمييز الفرق بين الصورتين المعروضتين بانزياح لونيٍّ بسيط بينهما. وهذا ما تنطوي عليه المفارقة, أي اجتماع ثمّ اختلاف, وهذا ما يجعل من واقعةِ كبو شخصٍ كان يمشي بثقةٍ أمراً مثيراً للضحك على الرغم من تفاهةِ الموقف وعرضيّته؛ لأننا بعينٍ واحدة استطعنا أن ندرك المد، ألا وهو إكمال هذا الشخص طريقه دون أن يقع, ثم وبعينٍ أخرى أدركنا سقوطه الذي خالف المدّ، وهو القفلة المفارقيّة, أي حين يفارق المدّ الخاتمة. ببساطة, عينٌ ترى من البداية حتى نهايةٍ افتراضيّة, وأخرى ترى من النهاية حتى بدايةٍ افتراضيّة, والفرق الناجم بينهما يولّد الفرق العميق المضحك. وأعني هنا أنه عميقٌ بمعناه البعديّ الشيئيّ. وهذه الرؤية المستنيرة لمفهوم النكتة جعلته يضع قواعد لها, وأهمها أنّه كلما قصرت وقل إسهابها, ازداد إدراكنا البعديّ لها. وخير النكات تلك التي تكون قفلةً فقط, مع مدٍّ ضمنيّ.
أما الضحك فهو منعكس عاجز لإرادة معلّقة. ما الذي أعنيه بهذا؟ أو بالأصح

ما الذي يعنيه بهذا؟! ببساطة هو منعكسٌ انهزاميّ ليس له تأثير على البيئة الخارجيّة, بل مجرّد تعزية عصبيّة. فالنكتة هي خدعةٌ إدراكيّة, لا نملك إلا أن نستجيب لها بالاستسلام, فلِمَ لا يكون على الأقل استسلاماً مبهجاً؟ إنّه كجرعة مخدّر يعطيها لك عقلك, حتى تغفل عن فشله في التنبّؤ. من المحتمل أن هذه المراوغة هي الأقدم في تاريخ البشريّة, أن تشير إلى شخصٍ أنّ وراءه خطراً يتقدم نحوه, وما إن يستدير ليجد زيف الادعاء حتى تطلقَ ساقيك للريح. هكذا يراوغ الإدراك المحاكمة, فيغافلك بالضحك.

ولم تنطبق نظرته هذه فقط على دعاباته التي يلقيها في محافلها الخاصّة, ولكن على حياته ككل؛ إذ كان يرى أن الموت هو نهاية الحياة, لكنّه ليس قفلة مناسبةً لها؛ إنّه فقط نهايةٌ مؤكّدة. لهذا فقد كان يرى الحياة كنكتة بلا قرار، وحين كان يفكّر الفلاسفة بمغزاها, كان هو يبحث عن مفارقة ختاميّة فكهة لها, وفشله في تلك المهمّة جعله يذهب مذهب المهرجين في حياته الخاصّة، فيضحك كثيراً, ليخدع نفسه ويوهمها بوجود معنًى خاصٍّ لها. وهذا ما دفعني، على الرغم من حذاقة طُرَفِهِ, إلى أن ألقّبه بالمهرّج.

-٣

حين كان صغيراً يلعب أمام منزله وقع عن دراجته, وجرح إحدى يديه. أحسّ بالدماء تسيل, لكنّه لم ينظر، ممتعاً نفسه برفاهيّة الاحتمالات، فربما يكون ذاك الذي على يده عرقاً لا أكثر. مشى بهدوء إلى منزله, وغسل يده مشيحاً النظر, ثم أمسك بخرقة ولفّها عليها، ليس بقصد التضميد, بل لحجبها عن إدراكه. أحكم ربطها بيد واحدة, ثم رفعها أمام عينيه, وانفجر ضاحكاً. وأحسب أن هذه كانت بداية تهريجه.

وبما أن الموت والغاية والمسؤوليّة كانت أموراً ينبغي غض الطرف عنها إن أراد المرء الإسهاب في مجاز الحياة/النكتة, فقد استخدم عصابة إدراكيّة أخرى, ألا وهي سؤال الـ (لمَ لا!) مترافقةً مع قهقهةٍ جوفاء في أصالتها.

فذاك السؤال التسويغيّ يُرجّح كفّة غياب القيمة على القيمة, وإعلاء الجهل اللامبالي على التجربة الأخلاقيّة. وأنا لا أعني أن أقول إن هذا السؤال جرمٌ أو جنحة أخلاقيّة على الدوام, فهو ليس كذلك إلّا حين تُسخّر المقامرة الضمنيّة فيه للمساومة على المبادئ التي يعتنقها الشخص. فحين يُغيّب القعر من التجربة الحياتيّة يصبح التردّي والقفز عن الجروف أسهل؛ إذ في الغالب تكون تلك الـ (لمَ لا!) سؤالاً بلاغيّاً لتكريس وتعزيز عدم قدرتنا على الإجابة. فنحن لسنا أخلاقيين عفويين, بل عن سابق تفكّر, وفيما عدا ذلك فيمكن إيجاز دوافعنا ومثبطاتنا بالتقوى القانونيّة, تلك التي تشرّع الثواب والعقاب اللذين لا يمكن تجاهلهما بسؤالٍ لامبالٍ كذاك السؤال الزائف الإدمانيّ.

بالطبع أنا لا أنكر الفعاليّة الإيجابيّة الاندفاعيّة المتضمنة في سؤال كهذا حين يُستخدم كمحرّك تسريعٍ في صغائر الحياة, وليس كغِمامة حصان, يضعها السائس على جانبيّ عينيّ دابّته حتى لا يفطن لحمله الذي يلاحقه - أي العربة - فيفزع, ويجفل عنه.

على الرغم من تأخره المُقدّر عن موعده تلك الظهيرة, أخذ وقته في تناول قهوته وكعكته المحلّاة وهو يقرأ العناوين الرئيسيّة في الجريدة. انقبض قلبُه حين تذكّر الموعد, لكنّه هزّ كتفيه وطبق الباب خلفه نازلاً الدرجات بسرعةٍ متجهاً إلى الشارع.

لم يستطع خلال مشيته الصغيرة أن يبعد عينيه عن أيّ امرأة تمرّ بمدى نظره إلّا لينظر إلى أخرى، فقد كانت مخيلته الجنسيّة خصبة, وسريعة في طرح السيناريوهات. في البداية كانت يتحلى بنوع من الاستدامة العشقيّة, إذ كان عقله يبني بتمهّل إلى نقطة ممارسة الجنس, مع تثمين تلك اللحظات الخاصة, كالقبلة الأولى, الحياء الأول, بدء التجرّد من الثياب؛ أما الآن فقد أصبحت مخيلته أكثر إنتاجية وعمليّة, إذ بات يرى النساء عارياتٍ مباشرة مستعدات لحلقة مجونٍ معه, لكنه لم يعد قادراً على أن يجد في أيٍّ منهن رفيقاً عاطفيّاً, ولا حتّى في عالمه التخيليّ. كان يردد أحياناً: "يا رجل, إنّ قلبي عنّين يحتاج

إلى حبّة زرقاء، أمّا عضوي التناسليّ فما زال كعامل شيوعيّ, يستيقظ قبلي في الصباح وينام بعدي في المساء. أقسم لو أن له بعض الحنكة البيروقراطيّة لسجّلته في النقابة"، ثم ينفجر في ضحكه.

وصل إلى باب عيادة الطبيبة, وقرأ تحت اسمها: "اختصاصيّة نفسيّة وعصبية وأعضاء تناسليّة"، ثم رسم في عقله مقطعاً تشريحيّاً طوليّاً لجسم الإنسان يتضمن هاته الأنظمة الثلاثة فقط مُتّصلةً ببعضها بحسٍّ كاريكاتوري وليس فيزيولوجيّاً دقيقاً وقال في نفسه: "حقّاً هذا يختصر جسم الإنسان البالغ. لا بدّ أن تكون فرويديّة حقيقيّة".

-٤

رحّبت به الطبيبة بعد أن بادرها مباشرةً بالاعتذار عن تأخّره, ودعته إلى الجلوس على أريكةٍ مقابلةٍ لأريكتها.

- أتعلمين, لو أنّ كرسيّك كان أقلّ دعةٍ من كرسيّي لأحسست أنك على وشك القيام بعمليّة جراحيّة لي. ستبدو لي أثارة الأريكة كمخدّر, ودفتر ملاحظاتك ذاك كمبضع. لديّ انطباعٌ حَسَنٌ عن هذه البدايّة, فهي تبدو مطمئنة (قال لها حال جلوسه, وقد بدت أقلّ فرويديةً في مخيلته, وعاريةً طبعاً).

- هذا هو القصد؛ ألّا تشعر بتفاوت مزعزعٍ لشعورك بالأمان ومثيرٍ للتحفّظ (أجابته بصوت لطيفٍ, تشوبه بعض الميكانيكيّة الأبوقراطيّة).

- نعم, نعم. إذاً أريد أن أخبرك أنه ليس هناك شحوم مترهّلة على بطني, ولم أحلق شعر جسدي منذ فترة. أرجو أن يساعدك هذا على تخيّلي عارياً أيضاً (قالها بصدقٍ لعوب).

ابتسمت الطبيبة بهدوء:

-ولمَ عليّ فعل هذا؟

- من باب التكافؤ، فهذا ما أفعله الآن.

كتبتْ شيئاً في دفترها ثم نظرت إليه:

- وهل هذا دأبك مع الجميع؟ أن تتخيّلهم عراة.
-بالطبع لا (قال باستهجان مصطنع)، فقط النساء.
صمتت لوهلة, ثم سألت:
- هل هذا ما دفعك للمجيء إلى هنا؟
- لا, فهو أمرٌ لا يزعجني بحد ذاته. ما يزعجني حقّاً هو رؤيتهم عراة مباشرةً في ذهني, دون تروٍّ من مخيلتي في تجريدهم من ملابسهم (طرقع أصابعه). لكن هذا على أيّ حال ليس سبب مجيئي, فما دفعني للمجيء هو فراقي عن خليلتي.
- آه (دوّنت هذه المعلومة)، منذ متى؟
- منذ حوالي عشر سنين، أو ربما خمس عشرة سنة. لا أذكر بالتحديد.
- عشر سنين على الأقل (ردّدت)، لقد تطلّب منك حسمُ أمرك وقتاً طويلاً.
- نعم, أنا مُسوِّفٌ بطبيعتي (أجاب ساخراً).
- هل تذكر اللحظة التي قررت فيها ضرب موعدٍ طبّي؟ (سألت, وقد قابلت السخرية بابتسامة مُدرّبة).
- نعم, كنت قد استيقظت لتوّي بعد حلمٍ غريب راودني (أجاب جاداً).
- وهل تذكر ذاك الحلم؟
- ليس تماماً، ولكنّي استطعت أن أدوّنه بشيءٍ يشبه قصيدة هاذية.
- هل تمانع ذكرها لي؟ (بدا الاهتمام على وجهها).
- لا على الإطلاق. أتعلمين، لقد سجّلتها على ورقةٍ حال استيقاظي, قافيتها تَحضُرني الآن، أما كلماتها فهي مشوّشة بعض الشيء؛ لا أعني القافية حقّاً بمعنًى اصطلاحيٍّ, بل النبرة العامّة.
- يمكنك أن تحاول تذكّرها الآن (قالت مشجّعة).
- حسناً، لا أدري، شيءٌ من قبيل:
"الوجود فارغٌ ومقعّر، والصدى جَهورٌ وأحمق. فحين تسألُ: لماذا؟ يَهدر الكون بإجابته: لماذا! إنّه ليس سؤال استكشاف, بل هو تعويذةٌ لاستحضار النسيان"

(قالها دفعةً واحدة, كمن يلقي فكاهةً وليس شعراً). ثمّ فكرت بحبيبتي, وافتقادي المريع لها, على الرغم من أني غير قادرٍ على تذكّر ملامح وجهها، بل بالكاد متأكّدٌ من اسمها. حينها أخبرت نفسي بضرورة الحصول على علاج نفسيّ, ثم عاودت النوم وقد اطمأن قلبي لهذه الفكرة.

- وحين استيقظت بعد هذا؟ هل اتصلت مباشرةً؟

- لأصدقك القول, كانت همّتي قد فترت عن ذاك القرار, وخمدت نوازعي للقيام به، لكنّي قلت لنفسي: ولمَ لا؟ وها أنا ذا هنا الآن.

- هل تستخدم أسلوب الـ (لمَ لا) كدافع للفعل على الدوام؟

- أتمزحين! إنّي أحج به إلى كافّة مناسك الحياة، (قهقه ثم عاود جديّته بليونة نفسيّة).

- أتعلم، قد يشي هذا باكتئاب مرضيّ؛ أعني أن دوافعك للفعل هي عدم وجود دوافع لعدم الفعل. حركتك أقرب أن تكون سكوناً مهادناً للضجر.

- لو سألتني إن كنت مكتئباً لأجبتك على الفور بالإيجاب دون حاجة لأي تحليل نفسيّ (هَزِئَ مداعباً).

- وهل تعلم سبب اكتئابك أيضاً؟

- وكيف لي أن أعلم, هل أنا الطبيب هنا؟!

ابتسمت ابتسامة عريضةً هذه المرّة, دون أن تتفوّه بكلمة.

(أردف) ولكن, وكحال أيّ شيءٍ آخر، لمَ لا أكون مكتئباً؟ لست حزيناً, ولا يقُضُّ الأمر مضجعي. أتعلمين ما هو الاكتئاب, أعني بشكلٍ تجريبيّ؟ هو أن تفقد القدرة على التذوّق شيئاً فشيئاً، حتّى إني ظننت في البداية أنّي أعاني من عاهةٍ شميّةٍ ما, لكنّي اكتشفت أن حاستي الشميّة تعمل على خير ما يرام, وهكذا لم يكن لي إلّا أن أُشخّص إصابتي بالاكتئاب. أظنّه أمراً طبيعيّاً وملازماً لتكويننا الاستهلاكيّ, فتفاعلنا مع عناصر حياتنا بجزئيّاتها وكليّاتها هو سلوكٌ استهلاكيّ بطبيعته، واقتصاديٌّ. فإن لكل سلعة منفعة حديّة, يكفّ المستهلك بعدها عن طلب المزيد من وحدات ذاك الموضوع. وبما أن الحياة تتسم بالتكراريّة

فهذا يعني تناقصاً مطّرداً في قيمتها حتّى نصل إلى نقطة حدّ الإشباع, حيث يصبح طلبنا على ذاك الشيء صفريّاً. لكن الحياة ما تفتأ تراكم العناصر ذاتها على حواسنا، لهذا فقد أفلح اللامجون المتذوقون, طوبى للمتلذّذين وخسِئ الشرهون الخاسرون.

أراد الوقوف بعد أن وصل إلى هذه النتيجة ومغادرة العيادة؛ إذ إنه لم يعد يسمع ما كانت تقوله الطبيبة بعد أن صادف عرضاً تلك السياسة الروحيّة الجديدة التي انشرح لها صدره,واطمأنَّ بها، "ولمَ لا! حميةٌ حسيّة هي حل معضلتنا الاستهلاكيّة".

غادر العيادة, ووعد الطبيبة بالعودة دون أن يكون قد عقد نيّته حقاً على الرجوع أو عدمه؛ إذ إنه لم يجد مانعاً من كليهما. إلّا أنّه قرر وجوب زيارة أخرى حين انتبه لنفسه يدندن موسيقى أغنية خليعة جعلته يحسّ بوعورة قلبه وشبقه الجنسيّ في الوقت نفسه. "إنّه دربٌ طويل" حدّث نفسه مقهقهاً, واتّجه إلى المسرح، حيث يلقي نكاته كعمل.

-٥

تقصّد الوصول إلى الصالة مبكراً، إذ إنه أراد تناول غدائه وإتباعه ببعض النبيذ. وبالتأكيد سيجد زميلاً أو زميلين ينضمان إليه على طاولته, فيأنس.

وبالفعل, حالما انتهى من تناول طبقه وهمّ بطلب شرابه ارتمى أحد زملائه على الكرسيّ المقابل له, وانحنى أمامه هامساً باهتياج:

- انظر، انظر، انظر.

- أنا أنظر يا صديقي بالفعل، لكن عليك أن تساعدني على توجيه بصري إلى اتجاه محدّد.

أومأ الزميل بنفاد صبرٍ رأسه إلى طاولة مجاورة:

- هل ترى تلك المرأة؟ إنّها المديرة الجديدة للمسرح. هل تصدّق هذا؟

تردد مهرِّجنا ترديداً مصطنعاً كأنه يتدبّر إجابته:

- نعم أصدقه، أصدقه بكامل قلبي وكياني، بل أؤمن به حتّى إن لزم الأمر (قال بصوتٍ مسرحيّ, وقد وضع كلتا يديه على يسار صدره).
- كيف لك أن تصدقه يا رجل؟ (سأل الرجل بصوت مكبوت كي لا يسمع).
- إن الوقائع هي أسهل ما يمكن تصديقه، وواقعةٌ كهذه لن تندرج حتّى في أخبار صفحة صدّق أو لا تصدّق (هَزِئ مقهقهاً).
- ليس هذا ما أعنيه، أعني ألا تستطيع أن ترى أنّها شابّة, فضلاً عن أنّها امرأة؟ (أجاب ببعض العصبيّة, ثم استطرد) إنّها كارثة (قال هذا واجترع ما بقي من كأس كان يحملها).
- وأيّ كارثةٍ في هذا؟ (سأل المهرّج مستغرباً).
- ألم تقل لي يوماً إنه من الأفضل للمرأة أن تبقى قضيّة على أن تصبح قائداً؟ ففي الأولى ستتبعها إلى نهاية العالم, وفي الثانية لن تتتبعها إلى نهاية هذا البهو!.
- نعم، أظنني قلت هذا، لكنّي أظنك قد أسأت فهمي؛ فأنا لن أتبع رجلاً أيضاً إلى نهاية هذا البهو, لا إن كان قائداً ولا إن كان قضيّة؛ أما المرأة فلها, أو كان لها، منزلةٌ عظيمة في قلبي. على أيّة حال لم أكن أشير إلى مناصب إداريّة أو أيّ شيء من هذا القبيل حين رفضت الوصاية الأنثوية، كنت أشير إلى علائق عاطفيّة تعتمل في ذاتي (أجاب المهرّج بلهجةٍ سريعة).
- آه حقّاً (أجاب الزميل متفاجئاً, ولكن دون خيبة أمل)، بصراحةٍ, ليس لديّ موقفٌ محدد في هذا الأمر، ولا أظنّ أنّه لدي الدافع لأكوّن واحداً، لهذا أختار أن أكون إمّعة في أحوال كهذه. ولمَ لا! سأختار صفّك. إذاً نحن مع التساوي الوظيفيّ بين الرجل والمرأة. نعم, سيكون من الأسهل الدفاع عن هذا الموقف على أيّ حال (ثم قهقه كلاهما).
- متى تبدأ فقرتك؟ (سأل المهرّج).
- بعد نصف ساعة. ما زال هناك وقتٌ لكأس أخرى على الأقل، فلْأطلب واحدة. وأنت؟

- ما زال أمامي ساعتان. وقت الذروة دوماً من نصيبي.
- إنك محظوظ (قال الزميل غير حاسد).
- محظوظ؟ حقّاً؟ لم تغيّر نكتة واحدةً من قطعتك منذ سنة, وعلى الرغم من ذلك ما زلتَ عاملاً. إن أردت رأيي فأنت المحظوظ هنا.
- آه, نعم، معك حق، هناك فسحةٌ للحظ هنا، لكنّي أفكّر دوماً في الانتحار, فأقول لنفسي: ما فائدة نكتة جديدة وأنت ميّت.
- آه, لم أكن أعلم أنك مكتئب أيضاً (قال المهرّج دون انفعال خاص).
- بلى أنا كذلك، أظنها حالة مستفحلة. إنه اكتئابٌ عضال يا صديقي. أتعلم, أحدّث نفسي في بعض الأحيان فأقول: بما أنّي أنوي الموت فلمَ لا أفعل أشياء متهوّرة قبل ذلك؛ أقفز بالمظلّة من طائرة، أخيّم في أدغال بعيدة، أو حتى أن أزهد في قمّة جبل متمرّد. أعني بما أنّ الموت هو العُقبول الأخير فكل شيءٍ بلا عاقبة أمامه, أليس كذلك! لكنّي أجبن أمام هذه الفكرة, فيزداد اكتئابي وشعوري بلزوم انتحاري. عضال! (قال آخر كلمة وقد مطّها قدر استطاعته).
ضحك المهرّج أمام فكرة زميله, ثم نصحه صادقاً:
- إذاً اكتب نكاتاً جديدة تحسّباً لتحسّنك وموتك؛ فإن قتلت نفسك بقيتْ كوصيّة أخيرةٍ للناس بأن يستمرّوا بالضحك, وإن لم تقتل نفسك فستكون كفيلك كي لا تُطرد من عملك.
- نعم, ولمَ لا! تبدو فكرةً حسنة. على الأقل تتساوى مع غيرها في الأهميّة الوجوديّة بالنسبة إليّ, إلّا أنها أكثر استراتيجية, وهذا شيء ينبغي تقديره فكرياً على الأقل, وإن لم أكن قادراً على ذلك شعورياً. تفهم ما أعني؟!
- أفهم, بالتأكيد (أجاب). ألم يحن موعد فقرتك الآن؟
- آه, بلى، ينبغي أن أستعد (قال بتلهّف مصطنع).
- آه, أرجوك، أيّ استعداد تتحدث عنه! لم يعد هنا فسحة للارتجال في قطعتك, وهذا يعني أنه لم يعد هناك داعٍ للقلق، ومن ثَمَّ لا داعي لأيّ نوعٍ من أنواع الاستعداد، لقد حفظ الجمهور طُرَفك عن ظهر قلب، لقد بتّ كقطعة الخبز

غير المنكّهة التي تُحيّد حاسة الذوق في حفلات تذوّق النبيذ.
- لا تكن قاسياً عليّ، لقد أخبرتك للتوّ أن لديّ ميولاً انتحاريّة، ألا ترى خطورة فعلك؟!
- بلى, اعذرني، أردت دفعك للتجديد فقط (أجاب).
- أمازحك. إن إمكانيّة سعادتي أمر محكومٌ عليه بالنقض التامّ, تماماً كفكرة الإله. فليس لمديحي ثقل إقراريّ لوجودها, وليس لذمّي ثقلٌ إنكاري لها، فقل ما يحلو لك. لكنّي أعدك أن أكتب نكاتاً جديدة قبل موتي، أعدك.
- سأنتظر سماعها منك أو قراءتها في وصيّتك إذاً.
- أؤكّد لك هذا. إلى اللقاء إذاً, عليّ الهرع إلى الخشبة.

-٦

غادر المهرّج الصالة بعد منتصف الليل, مستغرباً من قدرة صدره على استدامة انشراحه لفكرته طوال تلك المدّة. لقد كان أمراً افتقده منذ زمن, أيّ قدرة الأفكار على استبقائه تحت تأثيرها لفترات طويلة تتجاوز الدقائق, أو الثواني في بعض الأحيان؛ إذ باتت خواطره كرعشات الجماع, تشعرك بأنّك تملك معنى الحياة, للحظة، وفي اللحظة التالية تفقد معناها تماماً, لتشعر بعمق خيبتك التي تملأ جوف وجودك وعزلتك.
إن الحال كلعبة النوّاسة, إذ يجلس أحد الأطفال على جهة, والآخر على الجهة المقابلة، وحين يدفع أحدهما الأرض بخفّة فإنّه يرتفع تحت تأثير ثقل الطفل الهابط في الجانب الآخر, وهكذا. تكلفنا السعادة - أو البهجة على الأقل - جهداً بسيطاً حين يكون هناك ثقلٌ مقابل, أما في حال غيابه فتغدو فعلاً ذاتيّاً مجهداً، وتلك الذاتيّة الدائمة تفقدها معناها.
وهكذا كان حين يستيقظ ليجد نفسه في سرير امرأةٍ غير قادرٍ على أن يَكُنّ لها أيّ عاطفة خاصة شخصيّة, يشعر أن قدميه قد لامستا الأرض من جديد, وما عاد قادراً على أن ينكر الجاذبيّة تحت ساقيه المتهالكتين؛ أو حين يسمع

قصيدة ما تخلب روحه قبل النوم, وتصبح مضنية سقيمة بعده. فكيف بقي ذاك الشعور ثابتاً في كيانه؟
إنها الطبيبة. نعم, لم تقل الكثير، لكنّها كانت على الطرف الآخر من النواسة، كانت تهبط كي يرتفع. الآن تذكّر أنّه حين شكرها كانت مرتديةً في عقله كامل ملابسها. ليس حبّاً, بالتأكيد ليس كذلك, فقصّته ليست من خرافات العشق، بل كان عرفاناً, أحس به مباشرة، لكن دون أن يعيه.
جلس في الحافلة, ينتظر انطلاقها, وهو يداور تلك الأفكار مسروراً في خلده، ثم رفع زجاجة الماء ليشرب منها في لحظة الانطلاق, فشرق به, حتى كاد يختنق، وفكرة موته في منتصف تلك الحالة الروحيّة الجديدة كان أمراً مضحكاً ومفارقةً فكهة, فقهقه، مما زاد الأمور سوءاً. "سكرات موتٍ ضاحكة"، خاطرة أخرى عبرت عقله, وزادت من قهقهته المختنقة.
بدأ وجهه يزرقّ, وحدّة النكات تشتدّ, ومعها أزمته، حتّى كاد موته يكون وشيكاً لولا أن هرع ركاب آخرون إليه ليساعدوه على لفظ الماء الغاص. استعاد أنفاسه, وتورّد وجهُه بسرعة.
شكرهم, وعاد مستنداً على كرسيّه.
- نعم, لا بدّ أن أضرب موعداً آخر (ردد لنفسه) كان هذا مفيداً حقّاً.
ابتلع جرعةً أخرى من الماء وهو ينظر باستبشار في وجوه رفقائه, ثم ابتسم.

العبور العاشر: عفن

-١

أردت أن أخبر والدتي بنبأ موتي, لكنّي لم أرد أن أُفجعها, خاصّةً وقد خمّنتُ أنها لن تصدقني. هكذا تعاملت بشكلٍ عامٍ مع الموضوع, فسايرت الجميع في افتراضهم أنّي حيّ.

سأكون صريحاً, فأنا لا أعلم تماماً متى توفيت, ولا بأي حادث كان هذا، لكن عليك أن تسلّم بموتي ببساطة لأستطيع أن أروي لك القصّة. أتعلم ماذا! بل هيّا جرّ جثتي بالقرب من الثلاجة, وافتحها, علّ عضلات وجهي تنكمش لك عن ابتسامة تثلج صدرك, وتسهل عليك إنكار موتي, والعيش بسلام.

آه، اعذر فظاظتي, إن الموضوع حسّاس وتثير بعض نقاطه حفيظتي! دعني أبدأ من تلك الأمسية, التي لاحظت فيها أنّه يُسرى بجثتي في هذه الحياة بلا روح مُريدةٍ تسكنه وتحمله. كنت أجلس في شقّتي مع بعض الأصدقاء, وقد اتكأت برأسي على قبضة ذراعي المثبّتة على سطح الطاولة, حين زلّت فهوى رأسي دفعةً واحدة عليها. ضحك أصدقائي, فشاركتهم، إذ ظننت مثلهم أن السكْرَ كان قد نال منّي مناله, دون أن أكون قادراً على رفع رأسي. حينها وقعت على كشفي الشخصيّ: لم يكن ذاك الضحك حقيقيّاً, لم يكن أكثر من قرقرة أمعائي, وصفير الهواء في تجاويف جثّتي. لم يستطع أصدقائي إدراك هذا, ولم أرد أن أفسد عليهم سهرتهم, فسايرتهم كدأبنا معشر الأموات, واستمررت بإصدار تلك الأصوات المحاكية للضحك من بطني.

رفعوني في النهاية عن الطاولة, وسَجّوني على سريري لأنال قسطاً من الراحة. لكنّي لم أنم ولم أستيقظ, ولم أهتدِ إلى فكرة معينة تزيل حيرتي في حالي, إلّا امتناني كون يوم الغد هو يوم عطلتي حيث أستطيع أن أتحلل وأتفسّخ هنا كما أشاء بعيداً عن أنوف الفضوليين والهتافات الآلية الحاثّة على التحرّك الدائم في الاتجاه الإنتاجي. أعلم أنّه من الأسهل التعامل مع بعض تلك الأمور

وأنت ميت, أي إنه ليس عليك الإصغاء, ولا الفهم, ولا التأييد أو المعارضة؛ كل ما يجب فعله هو القفز إلى التيار المتحرّك من الناس عند البدء, وإلقاء نفسك على الضفّة حين يُخمّل العمل.

-٢

شنّفت هيضلة الناس أذنَيّ للصباح, وبدأ الصخب يعلو في الساعة المحددة له حتى وصل تواتر إيقاعه حدّاً يستطيع إخراج جسدي من السرير دون جهدٍ منّي. لدي تقدير بسيط لتلك الموسيقى الجماليّة التي باتت الآن خلفيّة دعائيّة لأشياء أكثر عصريّة, لكنّها بخلاف الإيقاعات الدارجة, والكلمات المصاحبة لها, غير قادرة على مواكبة تلاشي الروح، وهذا ما يجعلها غير عمليّةٍ بتاتاً لحالتي العضال. لا أحتاج موسيقى لأذنيّ وحسّهما الجمالي, فأنا لا أكترث بهذا الآن, بل أحتاج صراخاً وعويلاً مدروساً لجسدي الساكن في خموله الأبدي. قد تدعو تلك الأصوات بالموسيقى الطفيليّة, أو الزائفة, لكنّها على الأقل تؤدّي الغرض منها, وتجرفنا إلى التيّار العام، تعيننا بسطحيّة كلماتها حين تتلى ببطء على التظاهر بالعمق, وحين تلفظ هادجةً سريعة على التظاهر بالتمرّد، تجعل أمر اختيار هويّة لنا أمرَ تفاوتٍ في الإيقاع, وهو أمرٌ بسيط ومستحب من وجهة نظري كجثّة هامدة.

أمّا الاقتباسات! آه ما أروعها كم أعانتني في محنتي هذه! فأنا لا أحتاج إلى فكرٍ خاص حتى أضفي على شخصيّتي طابعاً أدبيّاً مطّلعاً، بل كلّ ما أحتاجه هو اقتباسات منحولة من كتب عظيمة لم أقرأها, ولن أقرأها يوماً. وما حاجتي أنا إلى قراءتها وقد وُجدت للأحياء! أما ما سُلب منها من فكرٍ مختصر, فهو مناسب لشواهد القبور, وهذا أمرٌ لا يمكنك أن تنكر أهميته لوضعي.

وهكذا إذاً, يُنهضني الضجيج كلّ يومٍ من فراشي, ويحملني إلى المطبخ, حيث قهوتي مُعدّة جاهزة, أجترعها دون تلذّذ, حتّى أعدّل كيميائيّة دماغي إلى حالٍ أكثر تأقلماً مع ما يلي من يومي الرتيب.

أتعلم! إن أكثر ما أحبّه في حضارتنا المعاصرة أنّها ليست حقيقّية؛ نعم إن زيفها هو أروع ما فيها. لا أدري أيّ عبقريّ قرر تخليل جوهر الحضارة في تلك الشعارات المقفّاة ذات الطنين, أو الأعلام الوطنيّة الملوّنة, والهويّات الثقافيّة المتوارثة, لكنّه عظيمٌ ببرغماتيّته التي باركت لحدنا الجليل, وزركشته لعيوننا الفارغة.

وأهم ما في عملية التخليل أنّه يحافظ على المظهر بما يكفي للإقرار بالمشابهة, التي تبرر في عصرنا الوراثة الشكليّة لهويّة الأصل. فليس للاستحقاق وزنٌ في عصرنا, بل محاكاة الاستحقاق. وهو أمرٌ عمليّ حقّاً, ورائع. ليس المهم قوّتك, بل ضخامة عضلاتك، ليس كلامك بل لكنتك، وليس نيّتك بل ما يوحي شكلك إحصائيّاً بنواياك. زمنٌ بسيط, كل ما عليك فعله للاندماج فيه هو أن تفعل كل شيء تماماً كما يفعله الآخرون. وإن أردت التفوّق فأذهلهم بأن تكون شبيهاً لهم أشدّ من شبههم بأنفسهم. سأعطيك مثالاً عن مُخللةٍ دارجة, ألا وهي الإنسانيّة؛ أترى لو أنّي أعني بهذه الكلمة أكثر من مظهرها لكانت أمراً مرهقاً حقاً, أستطيع تصوّر هذا، لكنّي ما أعنيه بها هو بعض الأفعال التي يمكنك أن تبرمج نفسك عليها: كأن تصدر تأويهةً صغيرة حين ترى طفلاً, أو تأخذ طرف الخير في مسرحيّةٍ ما, وتسامح الشرير فيها إن كان إنسانيّاً وله أسبابه الإنسانيّة. سيكون من المفيد أيضاً في هذا السياق أن تتستر على أفكار عنصريّة إن راودتك, فلا داعي لأن تناقشها فتفنّدها أو تؤكدها، بل احتفظ بها ببساطة لنفسك. عالمٌ سهل, صدقني! لا تحتاج إلى قيم حيّةٍ فيه, بل إلى محاكياتٍ مُقْنِعة.

-٣

قد تكون من أولئك اللاعرفيين الأحياء, الذين يناهضون قواعد عصرنا, وربما تريد أن تدعوني للقيام ضدّها لتكوين شخصيتي الحقّة، وإلى ما هنالك من هذا الهذر، لكنّي حينها سأسلك: لِمَ؟ قد تجيبني إجابة مسهبةً لا أدركها, أو

تجبرني على أن أقرأ كتاباً مملاً, أو روايةً مشوشة لا أفهم فحواها، أو إن كنت حذقاً فستجيبني ببساطةٍ: ولمَ لا؟ - وأنا أعترف أن هذا جواب صالحٌ لكل شيء، فعّالٌ حقّاً في أيامنا المباركة هذه. لكنّك إن فعلت فسأنبّئك أنّك تسيء استخدامه, أو أنّك من المجددين فيه؛ فهو لم يوجد فقط لتفادي عيش التجارب الأخلاقيّة, بل أيضاً كمثبطٍ ناجع لعدم بذل الجهد. أعلم أن هناك معاصرين ذوي طاقةٍ فائضة, يستعملونها كحجّة مضادةٍ لسؤال الـ (لمَ؟!)، لكنّي لست منهم, أنا من روّاد عدم الفعل الأصلي. لا أملك طاقة للتفريغ على أي حال، فلمَ لا أبقى ميتاً؟! أعلم أن الموت تحوّلٌ غير عكوس, لكنّي أعطيك مثالاً يقبض تماماً على خلاصة المعنى.

إن الفضيلة ذاتها تكمن في التمثيل, فالقيمة بحدّ ذاتها نافلة إن لم تتجلَّ بفعلٍ ما. والتمثيل اختصارٌ لتلك الآليّة, فلا حاجة لاستئصال قيمٍ وزرع أخرى، بل الأفضل هو إزالة القيم, وتفريغ الذات للمحاكاة والتقليد، إذ يعطيها هذا مساحة أكبر, ورؤية أفضل لحركات الآخرين وأفعالهم دون تأويل زائد أو رجوع إلى النفس وما يشابه هذه الأمور من مماطلات وجوديّة تُشعر المرء بالغثيان. وحتّى إن بقيت قيمك داخلك, فكما قلت لك, ما دمت لا تظهرها وتمثّل على أساس قيمٍ أخرى متبناةٍ عرفيّاً, فأنت بخير, وإن لم تكن على أحسن حال. نعم، تحلَّ بالتقيّة العرفيّة؛ ولمَ لا؟!

أعني, بحقّ التفاهة! لمَ علينا أن نكون أصيلين ومذاهب الابتذال متعددة نستطيع اختيار أي منها بلا وجل؟ إن كنت تحب الاختلاف جدّاً فاختر ابتذالاً غير الذي اخترته أنا, الأمر حقّاً بهذه البساطة. إن كنتُ أُفضِّل تلك الأغنية, أو سلسلة الأغاني التي تبدأ بـ: تك تك تك, فاستمع أنت إلى ذوات لحن الـ تك تك تاك, ولكن لا حاجة بك لأن تشغّل سيمفونية كلاسيكية عفا عليها الزمان والذائقة الفنّية؛ بالطبع إلّا إن عادت كتقليعة ارتجاعيّة, ولكنها لن تعود بكاملها على أيّة حال, فذرْع الجماليّة بات أقصر بكثير هذه الأيام.

وذرْع الجماليّة وقصره تعدّى إلى العلاقات الغراميّة أيضاً، فصارت أكثر قصراً

وعمليّة, مناسبة لسلسلة الانجرافات الابتذاليّة الواقعيّة التي نقفز إليها، وباتت لا تحتوي على الحب, بل على محاكاته الأكثر عمليّة وواقعيّة, ألا وهي الرومانسيّة. لا حاجة للتضحيّة وأنت قادرٌ على إشعال شمعة على طاولة العشاء. ولا للتفاني وأنت قادرٌ على تأدية رقصة رائعة البلادة. من يحتاج لملحمة وأنت قادرٌ على ابتذال الشعريّات؟ ولِمَ عليك التمتع بشكيمة جنسيّة وخمس دقائق كافيّة للنشوة؟ ترهات عتيقة.

الواقعيّة لا تمنحنا رفاهيّة المعنى, ولكنها تنعم علينا بالوصول. هكذا تجري الأمور, من هنا إلى هناك, لا يهمني لِمَ أنا هنا أو هناك, ما يهمني هو ببساطة كيف؟! ومع ذلك فإن الواقعيّة بعرفيتها لا تحرمنا من إجابات جاهزة لهكذا أسئلة, إجابات تستطيع أن تتبناها بكامل سطحيتك, حتّى تحيلها تعصباً دون أن يحقّ لأحد محاكمتها إلّا إن أدّت إلى فعل ما غير مُتقبَّل مجتمعيّاً. إن تلك الإجابات متكاملة داخليّاً, ذاتيّة البرهان كمسلّمة, فأي تشكيك بها يقود إليها, وأيّ تفسير لها يقود إليها, هي معناها, ومغزاها وكلّ-شيئها. هي مكينة في العرف, ومتينة ضدّه. أعلم أنها ستبدو لمراقب خارجيّ أمراً سخيفاً في الغالب, ولن تبدو كإجابات لأي شيء، لكن هذا لا يهم, فأنت ستكون في الداخل غالباً إلى الأبد. ولا تقلق، ستجد أيضاً إجاباتٍ ونقداً جاهزاً للمراقبين الخارجين يضع ضميرك في سلام أبديّ، مثلي تماماً.

-٤

في بعض الأحيان أمقت الناس المحيطين بي لعدم معرفتهم بموتي, كتلك الليلة حين فاجأتني ضوضاء غير متوقعة أوقعتني أرضاً, وكان عليّ البقاء هناك حتى الصباح. أعلم أنّي أعتني بمظهري, وأُغرق نفسي بالعطر حتى أغطّي رائحتي، لكن كيف لهم ألّا يلحظوا أنّي.... أنّي لست هناك؟! لا أعلم كيف أعبّر لك عن فكرتي؛ فهذا أنا بالطبع, هذا شَعري, هذا أنفي وفمي، وهذه أغنيتي المفضلة, وكوب قهوتي الصباحي، وها أنا أعلّق على حائطي اقتباسي المفضّل من فلمٍ لم

أشاهده. هذا أنا, هذا نحن. لكني بتّ أفتقد شيئاً ما، تلك الضحكة المقعّرة في جوفي, أشعرتني بخلاء معيّن في أناي. كيف أقول لك هذا؟! آه، استمع إليّ, أظنني قد اهتديت لطريقةٍ أشرح بها حالي المؤقتة تلك؛ أتعلم ذاك الصداع الذي يسببه لك طرق آنية نحاسيّة فارغة بجوار رأسك وأنت في حالة خُمار أو حين تستيقظ من النوم مباشرة؟! هذا هو تماماً ما حلّ بي, لقد طرق أحدهم أناي النحاسيّة بجانب رأسي, هذا ما أشعر به حين أفكّر في عدم قدرة الآخرين على كشف جثتي على الرغم من أنّي أمامهم طوال الوقت.

لا بأس بهذا بالطبع, فتلك هيّ غصّة حقيرة, لن تعجز الواقعيّة بميكانيكيتها العظيمة المبهرة للحواس عن إساغتها. المشكلة في الجمال الحقّ الأصيل أنّه غير مريء ويفضي بك بعد إضجار إلى حيرة وجوديّة وأسئلة لا طائل ماديّ منها. أما الجمال المخلل, أو وريث الجمال, فهو "هُناكيّ" أيضاً؛ أيّ إنه مصمم ككامل ثقافتنا ليفضي بك من هنا إلى هناك, بغض النظر عن إحداثيّات تلك النقاط؛ فليس المرض حقّاً ما أعاني منه, بل أعراضه، لهذا فإن ما يهمني من الدواء هو قدرته على التعامل مع الأعراض. إن ما يزعجني ليس موتي, بل إدراكي إياه، وليست الفجاجة الإدراكيّة لمن حولي هي ما يزعجني, بل رهافتي المؤقتة لها، وليس المهم وجود جرحٍ قاتل في أحشائي مثلاً, المهم ألّا يؤلمني.

وعالمنا الحاليّ مخوّل لإجراءات طبيّة من هذا النوع؛ أعني أنّه عليك أن تتابع التركيز على الوصول إلى هناك-اتك, وتُوكل صخب الحياة أمر غصّاتك, فهو قادر على التعامل معها بكفاءة. إنها حياة جميلة وفعّالة حقّاً. ستحملك الواقعيّة من مهدك وتوصلك إلى لحدك, دون جهد منك يذكر، دون تشكيكات مؤلمة نزقة تؤرّقك. ولا تحتاج أي نوعٍ من الارتجالات الفكريّة أو العفويّة إلا المبتذل المطروق منها, وإلّا فقد يوقعك هذا في خطر "سوء التعليب" وتصبح غير صالح في أي مجتمع. العزلة يا صديقي ستكون مصيرك, فاحذر. وبالمناسبة، فأنت لا تحتاج في هكذا واقع لأن تغيّر ما في جوفك لتغير السلعة-أنت، كل ما يهم هو أن تغيّر صورتك الخارجيّة, فهذا هو كلّ ما يهم. قلّ لي أرجوك, ما

السوء في أن تكون سلعةً ثقافيّة اجتماعيّة؟
لا أدري إن كانت مُكابرتك تلك أصيلةً, أو موجة جديدة لم أسمع عنها بعد. المهم, ما أريد أن أقوله إنه من الصعب محاكمتي حين أكون جزءاً من كلّ. حين أفعل ما يُفعل, وأكفّ عما يكفّ عنه. فالجريمة لا تكون ضد قيمة حين يفعلها الجميع, بل تكون إعلاءً لقيمةٍ أخرى؛ فحين أقفز من جبل أكون منتحراً بائساً, وحين نقفز كلّنا إلى مصرعنا فهي شهادة في سبيل قضيّة. وصدقني لن يهم أن تُعرف ماهيّة تلك القضيّة. أنا قاتل حين أقتل شخصاً, ولكن ليس إن كنت جلّاداً أأتمر بإمرة المجتمع. لست ميتاً حقّاً حين أتفسّخ, بل حين يقرر الآخرون دفني. أترى كيف تجري الأمور؟!
آمن بأيّ شيءٍ تريده، لكن افعل فعلنا، ولا تنسَ أن القول فعل. لا تبدو لي صفقةً بائسة, فهي توصلنا على الأقلّ إلى... إلى هناك, حيث يبدو جميع الواصلين سعداء وقانعين, فلمَ لا؟! ثم إني ميتٌ, فلا تحمل عليّ إصر الأصالة. ولا أي شيء آخر. كل ما أنتظره هو أن أُنقل من أماكن نشاطي إلى شقتي، والعكس. نعم, هكذا تماماً يجب أن ترى الحياة، كناقل. لا توهم نفسك فتراها أيّ شيءٍ آخر, فتتبنّى فلسفات استداميّة وتأمليّة كتلك التي تدعوك أن تحيا بدل أن تعيش، وهراء آخر من هذا القبيل. إنّ الثقافة المعاصرة هي ثقافة ناقليّة, تقودنا جميعاً عبر محطات معيّنة؛ فليس عليك أن تكافح من أجل حبٍّ, أو فكرةٍ، أو مبدأ, إلّا إن كانت تلك علامات على الطريق, ورأيت أن الجميع يفعلها. العلوم تُلخَّص لتنقل مباشرة إلى دماغك, الطعام معدٌّ للالتهام بسرعة, العلاقات العاطفيّة رهينة الإقرار المجتمعيّ والفعاليّة الواقعيّة. إن لم تُسرّ بكل هذا فأنت جاحد حقّاً. كل انهزاماتك واستسلاماتك مبررة سلفاً, فالكفاح المبتور يعد كهداية قطيعيّة, وكعودة إلى الصواب الجمعيّ.

-٥

ويمكنك أيضاً أن تكون جامحاً في مخيلتك ما دامت مؤطرة بتأييد طائفة ما. مثلاً, يمكنك أن تؤمن بالفضائيين القدماء إن أردت, فلن تبدو مجنوناً ما دام هناك الكثير من داعمي هذه الفكرة. أعلم أنّها إحدى الفرضيات المدعية العلميّة، لا أستطيع أن أنقض صحّتها, لكنّي أستطيع أن أنقد علميّتها وببساطة. آه لا تنظر إليّ هكذا, وكأني غبيٌّ دعيّ. حسناً, إنّ هكذا شعوذات تسخّر العلم لأجندتها الخاصّة, فلا يستعمل العلم بشكل وظيفيّ, بل فقط بشكل شكليّ كافٍ لإظهارها بمظهر علم أصيل مستقل، فتحشر الفرضيّة الزائفة نفسها حشراً في جنبات العلوم, حتّى تمزق معارفه فتسنح الفرصة لتلفيق قطعه كيفما لزم. وليست القدرة التفسيرية فقط هي ما يجعل الفرضيّة صالحة علميّاً, بل واتساقها مع المعرفة العامّة, وتمتعها بالقدرة على شرح الكيفيّة، مما يكسبنا معرفة تنبؤية بسيرورة الظاهرة المدروسة. إن تلك الادعاءات ليست أكثر من علقات على العلم، فهي لا تسعى حتى إلى تفسير الظاهرة, بل إلى إقحام ظاهرة موضوعيّة مع أخرى ثقافيّة, بلغةٍ علميّة ومنطق إيمانيّ خطفيّ غير مبرر، بحيث حتّى لو استؤصل العلم من البرهان فلن يؤثّر في قيمة صحّة الفرضية عند طارحيها. وليس لتلك الفرضيات الداجلة أن تنقض بالعلم, فهي ليست من جنسه, بل تنقض بطرح فرضيّة بديلة غير علميّة, ولها الكفاءة التفسيرية نفسها. وهذا التشابه يجعل القيمة العلميّة لكليهما معدومة، فإن أُخبِرت عن ساحرٍ صدقت نبوءاته غامضة التدوين, قل بل إنّه عالمٌ قدم من المستقبل. دعني أروي لك قصةً سخيفة موجزة قد تفهمها, وقد لا تفهمها, لكنّها تضحكني وتوضح لي معنى ما أقول على الأقل:

قالت الطبيعة المضادة - أي الممكنة, لكن مستبعدة الحدوث في فضاء تجربةٍ احتماليّة محدودة - للطبيعة:

- لِمَ لا تزيلين الشعر عن شرج هذا المخلوق التعيس؟

فقالت الطبيعة:

- لا داعي لهذا.
هل فهمت ما أعنيه؟ إنه ليس صراعاً فقط بين الممكن والمستحيل، بل بين اللازم وغير الضروري. ومنظّرو محاكيات العلم يستعيرون عناصر من الطبيعة المضادّة. فحين تواجه مسألةً من هذه المسائل عليك أن تفصل بين الطبيعيّ وفوق الطبيعي أوّلاً, فالعلم وسببيته الماديّة يُعطّلان فيما هو فوق طبيعي، ثم عليك أن تفصل الطبيعيّ عن المضاد. وهكذا يمكنك حسم أمرك في أمورٍ كهذه. دعني أصدقك القول، وإن كان هذا سيجعلني أبدو كمتمنطقٍ متحيّز, لكن اللجوء للطبيعة المضادة يبدو كتطبيع ماديّ للإيمان, ومحاولة إيجاد سند علميّ له, وهو ما يعارض طبيعة الإيمان, أليس كذلك؟ إنها عمليّة تمسيخٍ لكليهما؛ فالتفاسير المستمدّة من عناصر الطبيعة المضادة تبدو مثاليّة بطبيعيتها, لكنّها في جوهرها مخالفة لهذا.
لقد كنت تظنني غبيّاً, أوقن هذا! بالطبع أنا أذكى من تقديرك، لكنّي لن أتفوّه بما قلت لأيٍّ كان، بل على العكس, سأشجع هذا النوع من الهذر إن اضطرتني الحياة لذلك.
ماذا؟! هل تظنني أحاول مداراة حكمك بأقوالي! لا بتاتاً. إن أردت أن تفني الأرض فافنِها. كل ما سأطلبه منك هو أن تدير وجهي بالاتجاه الآخر قبل أن تفعل هذا، فأنا واقعيّ، واقعيّ وميّت فوق هذا.
لا تنظر إليّ هكذا، فإني لم أفعل لا شرّاً ولا خيراً، أو ربما أكون قد فعلت كليهما. ما أريد قوله هو أني لا أعلم ما الذي فعلت. احسبني في غيبوبة, إن لم يكن الموت وانعدام الإرادة فيه شفيعاً كافياً.

هكذا حدّثت الجثّة آدابار دون أن تعيرني انتباهاً خاصّاً, بعد أن عبرنا إلى وجودها ووجدناها ملقاةً على وجهها على الأرض.

العبور الحادي عشر: الديكوباجيون الملحميّون

-١

شدّني دليلي ليقودني عبر سُلّم طويل لم أتوقّع وجوده في قبو تلك الجثّة، كان يزداد التفافاً وضيقاً كلما ترددنا عليه حتّى بدأت أحسّ بالدوار, وبأن الجدران تكاد تطبق على صدري, فتهصرني، وجعلت الرطوبةُ الهواءَ ثقيلاً, كريه الرائحة, وكأنّه استرسال للنَّفس في فم سمكةٍ ميتة.

لم يكن السقف هو الآخر رحيماً بمشيتنا, إذ إنه مال علينا شيئاً فشيئاً حتى أُجبرنا على حني ظهورنا إلى أن كادت رؤوسنا تُلامس رِكابنا, وما عدت قادراً على الاستهداء إلّا بوقع خطوات آدابار التي تسبقني، ثم في النهاية سمعت صرير بابٍ صدِئ يُفتح عنوةً, وما هي إلّا خطوات حتّى عبرته أنا الآخر, لأرى الباب الذي فُتح من بين ساقيّ, إذ إن ظهري كان لايزال محنيّاً, فوجدته يشبه شاهدة قبرٍ منسيّ, وقد نُقِش عليه: "هنا يرقد شهداء اللاشيء, بلا أسماء ولا وجوه".

رفعت ظهري المتيبّس رويداً رويداً, لأجد آدابار يحدق بي منتظراً, فأومأت له بجاهزيّتي للمتابعة, وتحرّكت نحوه أتأمّل مُحيطي.

بدا كلُّ شيءٍ فاقعاً, ومبهرجاً, إنّما بلا روح. لم يكن لأيّ غرضٍ هنا دورٌ وظيفيّ؛ فالعصافير التي تغرّد تبقى مُغرّدة, وتلك التي تطير تبقى هناك معلّقةً في الهواء إلى الأبد، والأنهار تجري, ولكن بلا ماء, والورود مغروسة، لكنّها لا تنمو ولا تموت ولا تُقطف، والسكين لا تقتل، والجوع لا يفتك. كلّ شيءٍ خلفيّة خُلّبيّة لحيواتهم ورؤوسهم الفارغة حرفيّاً؛ إذ إن قاطني هذا المكان كانوا قد أُبدلوا مكان رؤوسهم كراتٍ زجاجيّة تعكس وتضخّم ما وراءهم لا غير، فيتباهون بها وكأنّها من صنعهم, أو يمثلون الألم بها.

حين رأونا نتجه صوبهم هرعوا إلينا متدافعين يحاول كلٌّ منهم عرض ما تمليه عليه الخلفيّة؛ فمنهم من تقافز ليمرر أشعة الشمس عبر رأسه، ومنهم من وقف أمام أيقونة عاشقين, محرّكاً ذراعيه حركاتٍ ميكانيكيّة إيمائيّة, لم

تُشعرني بأي معنى، وآخرون اعتلوا منصاتهم, وقد ألصقوا على الجهة الخلفيّة من كراتهم الزجاجيّة صور دمارٍ وحرب. كانت تمثيليةً محزنة, تغضن لها وجه آدابار بغضب، ففضهم عنّا بعنف بعدما احتشدوا, ليتفرقوا كالنمل في كلّ الاتجاهات، ووقفوا بعيداً عنّا يستظهرون مسرحية المنفى, بكلّ ملحميّتها المضحكة المخجلة.

-٢

توجهنا نحو واحدٍ منهم, فتقدّم منّا بحذر وأخرج دبّوساً يشبه مكبّر صوت, وقرّبه من عنقه، وبدأ يتحدث, ليخرج صوته إذاعيّاً جهوراً، فلطمه آدابار من يده, وأسقطه أرضاً. تردد الآخر قليلاً, ثمّ مدّ يده مرةً أخرى إلى جيبه, وأخرج دبوساً آخر, فخرج صوته هذه المرة نسائيّاً ناحباً مفجوعاً, لكن آدابار كرر فعله، فوقف ذاك حائراً لا يدري بأيّ صوتٍ يتحدّث؛ أرخى ذراعيه, ثم تناول دبوساً آخر, وقرّبه مرتجفاً إلى رقبته ليخرج صوت طفلٍ مُتألّم، فقبض آدابار على رقبته بكلتا يديه, وهزّه بعنف مخاطباً إيّاه:

- ليس لك صوتٌ حق, فخاطبني بفحيحك.

لم أكن لأفهم فحيحه, لولا أنه قد أُوِّلَ لي. قال لنا إنه شاعرٌ مشهور في زمنٍ من الأزمان, فخبّره آدابار أن كلماته فانيةٌ, ولن يذكرها بشر، فأجاب أنّها ألمه, حينها دفعه دليلي بقوّة, ونهاه عن الكذب, ووبخّه:

- أنا الدينونة, لا يخفى عليّ حقٌّ ولا باطل, فانتهِ عن مراوغتي، قد عمّدت ألماً ليس لك باسمك, في سبيل المجد، فنلته, لكنك لن تنال الخلود.

وقع الشهيد المسرحيّ على ركبتيه, وبدأ يبتذل مأساة إثر أخرى ونضالاً بعد قضيّة ليدافع بها عن نفسه؛ لكنّ كلماته كانت تدنيساً للفنّ والطبيعة, كمن يُمثّل في جثّة هامدة ويحاول تحريكها بحيله البديعيّة, وزخارف المحاكاة الخادعة.

- إنّه لا يرى دناءته (خاطبني آدابار ثم لمس صدره بخفّة).

فبدأ صدر ذاك الشخص يموج, وبدأ يرتجف برعب، وما هي إلّا لحظات حتى أطلّ رأسٌ جنينيّ من بين أضلاعه. كان مغطًّى بمادةٍ مخاطيّة, من دون أيّ قطرة دم. يا له من منظرٍ مهول! وما جعله أشدّ وقعاً على النفس هو ظهور عينيه المثبتتين بجمود بلا حياة, ثم أنفه وفمه دون شهيق أو زفير, إلّا من غرغرة ميكانيكيّة الوقع. أردت أن أغمض عينيّ, لكنّي تابعت المشهد بحذر, فظهر بعد ذلك كاملُ جسده الصغير المسود, وهوى على الأرض, دون أن يتّصل بحبلٍ سريّ, ودون أن يحدث دوي ارتطام على الإطلاق، ثم تلاشى كالبخار.
ظلّ صدر شهيد اللاشيء مشقوقاً, فرأى خواءه بنفسه, وسقط في يده إنكار زيف هويّته، فهوى هو الآخر على الأرض كصنمٍ وتهشّم رأسُه الزجاجيّ.
شدهني الفزع, فما عدت قادراً على الحركة ولا على الاستفسار. لكن آدابار لم يعدم حيلته, فاقترب من ذاك الجسد مبتور الرأس, وأنهضه، فها هو يتحرّك, ويومئ على غير هدًى, ثم أطلق ساقيه للريح بعيداً عنّا.
- لا تقلق, فإما أن ينبت له رأسٌ من ألم, أو رأس من زجاجٍ مرة أخرى (خاطبني آدابار).

-٣

تابعنا طريقنا, فصعدنا هضبة أكثر حياةً, لكنّها مع ذلك هزيلة الاخضرار، فوجدنا فوقها قوماً عليلي المظهر، مرهقي الحركة, فأطلعني رفيقي أنهم شاحبون لشحوب ألمهم وأنانيّته, فهو أقرب للقضاضة منه إلى التشاعر الوجوديّ.
اقتربنا من فتاة عاريةٍ صلعاء باهتة اللون كشبح, أمالت رأسها بلا اكتراثٍ لترانا حين أحسّت بوجودنا، ثمّ أشارت ببلادةٍ إلى سلّة مليئةٍ بالجوارب المتّسخة؛ لم أفهم مرادها, لكن آدابار شرح لي أنها تؤمن أنّها فنانة, وأن أيّ شيءٍ تشير إليه يستحيل فناً. ذاك هو التوارد العاطفيّ الكسول, والفنّ المضاد؛ فبدل أن يكون متسامياً من الحسّ إلى ما فوقه, بات إرغاماً على ذات التجربة الحسيّة, بل

ومغرقاً في ملكوت المادّة.
حين أحسّت لامبالاتنا بمادّتها الحسيّة بدت غاضبة, فأشارت إلى مناديلها المستعملة على الأرض, ثم أسقطت نفسها بجانبها وبدأت تتدحرج حولنا، لكن ذاك لم يشعرنا إلّا بالغثيان, فحاولنا متابعة طريقنا, إلّا أنّها قفزت أمامنا فجأة, وبدأت تحاول الاستنماء أمامنا. لم نعرها انتباهاً, ولم نُدِرْ وجوهنا عنها. إنها استعراضٌ بائسٌ لـ (الأنا) وغزوةٌ حسيّةٌ للتمدد على ذواتٍ أخرى. إنّه لا يرقى أن يكون جنوناً, بل هو اختلالٌ "أناويّ" وحسب. هذا الفن ليس من الطبيعة بشيء, فهو يفرض الذات على الذات, ويفرض التشوّه بفعل مثله، هو انتقاصٌ مقصود للنفوس الأخرى, وليس استزادةً إنسانية؛ فلئن أنا قطعت يدَك لتشعر بيدي المفقودة فأنّى لك أن تمد لي يد العون؟
استمررنا في المشي وقد تركنا تلك الفتاة تتقلب في أنحاء أناها, تنقّب عما قد يلفت انتباهنا، حتّى غبنا عن بصرها, لننحدر في وادٍ صخريّ عميق أجرد, بدا جشعاً بلا قرار. دخلنا إلى كهف مظلمٍ قادني إليه آدابار, واستمررت بالتقدم دون أن تعتاد عيناي العتمة، لكنّ أذنيّ استطاعتا تمييز مشية دليلي, وصفير الريح في عروق الصخر.

العبور الثاني عشر: مملكة الآحاد

-١

لامست أقدامنا رملاً قائظاً حال خروجنا من الطرف الآخر للمغارة, ولفعت جلودنا حرارة دون وهج شمس, إذ إن الليل كان قد ادلهمّ وعمّ الناحية كلّها, إلّا من صخور متّقدة كالجمر من أثر التسخين.

تقدمنا بصعوبة في تلك الظروف, ولم تحالف مسعانا تلك الريح التي هبّت علينا بلا هوادة دون أن نجد منها ملجأً ولا مأوًى في تلك البسيطة القاحلة إلا من أطلال آيلة للسقوط في أي نفس, غير قادرةٍ أن تدرأ عن نفسها ما هو أهون من مصابنا بأشواطٍ عظام.

ملتُ على صاحبي, وبلّغته ما جال في نفسي من صعوبة استمرارنا والحال كذلك، فخبّرني أن أتابع المشي, إذ إن الشمس تزْوَرّ عن هذا المكان, فلا يأتينا الصباح إلّا بقبس من نورٍ وسكينةٍ غير كافيين بأي حالٍ لطريق سالك، فلا بدّ علينا من الإيغال باتجاه مصدر الريح, دون أن نخشى أذيّةً، فهي لن تصيبنا.

ولم يتغيّر دربنا حتّى تاخمنا الصباح لساعات قصار, قطعنا خلالها مسافةً لا بأس بها أوصلتنا إلى مرتفعٍ, استطعت أن أتبيّن من فوقه مساحةً مدقعة الحياة, يليها بساط أسود يشهق ويزفر, لم أتبين كنهه, وكنت أشد تعباً من أن أسأل، ويلي ذاك السوادَ أريجٌ أخضر لم أرَ نهايته, فاستبشرت.

لكن آدابار هزّني, وقال لي إنهم يتقدمون في الليل فعلينا الإسراع لنستطيع اللحاق بهم في الصباح التالي, فأستطيع التحقق من كنههم بأم عيني. وهذا ما كان حقّاً, فشددنا الرحيل بأقصى ما استطاعته واحتملته أجسادُنا, وعند تباشير الفجر قال لي آدابار: ها نحن ذا!.

-٢

آه، أي شرٍّ ابتُلي هؤلاء القومُ به؟! وأي شرٍّ ابتلى هؤلاء القومُ الأرضَ به؟! لم يكن ذاك السواد إلّا سرباً ضخماً من الجراد العملاق, الأسود كالقات, بوجوه بشريّة الملامح. لقد كان خفق أجنحتها هو مصدر تلك الريح السَّموم. إنّهم التبيُّئِيّون؛ أولئك الذين ذكرت خصالهم سابقاً على لسان قاف. هم المستغرقون في المادّة, حتّى استحالت أرواحهم أصناماً, فتبعوها إلى دركاتها ومراديها. ودجّنوا كل ما سواهم على رأيهم, أو عادوه فيه. أغاروا على تعدديّة الطبيعة, فأرغموها على أن تتطبّع بضيق أفقهم, فانقلبت بيئة غير صالحةٍ إلّا لنوعهم. قوانينهم استئثارية تحيل إلى غبارٍ كل من يخالفها، فلا هواء في بيئتهم إلّا لمن يتبعهم.

إنهم وباء الحضارة واندثارها، خمول العقل وفناء الروح. ما استطاعوا أن يخرجوا من جحيم مادتهم وأصنامهم, فتمسكوا بأذيال العالم، لا لينقذوا أنفسهم, بل ليجروه إلى عذابهم. لم يستطيعوا اعتياد الحياة, إلّا بالموت، فرموا الآخرين به. هم شديدو التشبّث بمادتهم, حتّى حسبوا مزيداً منها روحاً وقداسة، كباني القلاع الرمليّة على الشاطئ, لا تدوم إلا برحمة أمواج البحر. وأمواج الخلود قادمة لا محالة, لتطيح بأدرانهم البائدة إلى طُهر العدم.

في مملكة الآحاد, ليس هناك وقتٌ لباقي أيّام الأسبوع, ولا مكان لباقي الأعداد، ولا مجال للحياة الحقّ إلّا في خنادق الموت, موت ما, مجد وضعيّ ما. تقدّم آدابار من إحدى تلك الجرادات الشاخرة دون وجل, وأمسك بأحد قرونها بكلتا يديه ثمّ شدّه بقوّة وحزم, فنزعه، ليدوّي صراخ كريه صادرٌ عن تلك الحشرة, أيقظ جميع السرب. تنبّه بعضها لعاهة رفيقها, فطارت فوق رأسه ثم هوت عليه دفعةً واحدةً لتصرعه, دون أن يملك لنفسه فرصةً في النجاة.

لا يُتسامح مع الاختلاف في مملكة الآحاد.

عاد البقيّة فوراً للنوم, فتقدّم آدابار من اثنين من السرب هذه المرّة، وحفّزني على أن أحذو حذوه، ففعلت. لم نزامن حركاتنا بعدٍّ تنازليّ, لكنّها كانت

متوافقة تماماً, وكأننا على نبضٍ واحد، فزأرت الجرادات الأربع دفعة واحدة, واصطفّت بحذاء بعضها لتواجه الآخرين, فقد حدّست مصيرها سلفاً، لتبدأ بينها حربٌ طاحنة, لم تنتهِ بالسرعة التي تصوّرتها.
انزوينا عنها لنراقبها، فأشار آدابار إلى جرادةٍ كانت تحاول الانسحاب من تلك المعمعة، تحرّكت ببطء حتّى ابتعدت, ثم التفتت لتراقب الطامّة هي الأخرى.
ارتَجَفَتْ هناك في الرمل الملتهب بكامل قوّتها, حتّى بدأت قشرتها بالتشقق, فاقتربنا منها على عجل، وكان رفيقي أسرع منّي إليها، أراد الإمساك بها ليزحزحها من مكانها, لكن لم يبقَ من تلك الحشرة إلّا قشرةٌ سوداء واهية, ما لبثت الريح أن عَصَفت بها بعيداً بلا جهد.
- شرنقةٌ وجوديّة (قال لي آدابار, وهو ينعم النظر في شيءٍ بلا شكلٍ خلّفته تلك القشرة وراءها, ما لبث أن غار في التراب كالماء. نظر إليّ دليلي, ثمّ أشار إلى المساحة الخضراء غير القريبة منّا, دون أن يتفوّه بكلمة، كأنّه يخبرني بمآل ذاك المخلوق المتشرنق، فشعرت بالحبور).

-٣

تركنا الجماعة الناجية من الجراد خلفنا, لتبيد نفسها في وقتٍ لاحق، وتوجّهنا إلى المرج أمامنا ننشد بعض الراحة والرطوبة.
قال لي آدابار بعد أن جلسنا على العشب:
- ليست الإنسانيّة على قلبٍ واحد، فهم لا يحتفون بالاختلاف, بل يشيدون به حتّى يغدو انفصالاً ثمّ عداوة, وهذا يعيدهم لتمجيد التشابه, ومقت الاختلاف، وهكذا. لمَ لا يكونون فحسب؟! لمَ يجفلون عن ذواتهم الحقّة؟!
حين يحيق البدد بنظامٍ ما, وينهار، تحاول كلّ مجموعة الذود عن تشابهها بنظم صغيرة تحاكي ذاك الذي انهار. إنّها عناقيد نُظميّة, تحمل فناء النظام الأم نفسه! أتعي ما أقول؟ (سألني, فأومأت له برأسي بتردد دون أن أكون متأكداً من إلمامي بما يعني).

تنهّد تنهيدةً عميقة, ثم أكمل:
- ما أريد قوله هو هل تستحق الإنسانيّة فرصة أخرى؟! أم إنها لن تلبث تكرر نفسها بمآسيها وشرورها إلى الأبد؟!
طأطأت رأسي بخجل من نفسي, وقلقٍ على مصيرنا، ثم استجمعت شجاعتي, وأعدت نظراتي إليه وقلت:
- هناك إنسانيّة قادمة، إنسانيّة فائقة على قلبٍ واحد, وعقولٍ وذواتٍ لا تعدّ ولا تحصى.
رسم على شفتيه ابتسامة خافتة, ووضع يده على كتفي:
- هذا ما وعدني به قاف أيضاً. هيّا, لنذهب ونرَ أيّ حُكمٍ أنويه لكم.
وقف على قدميه, وبدأت التحرّك خلفه ببطء وقد انتابني خدرٌ في رؤوس أصابعي, وتسارعت أنفاسي ودقاتُ قلبي. نفضت الشرود عن ذهني وشددت الخطا لأواكب مسيره باتجاه البحيرة, حيث استمرّ بالتقدم إلى أن غاصت ركبتاه وأنا معه يشدّ على ذراعي كي لا أُذعر. مشينا أكثر فأكثر, نشقّ طريقنا في عباب الماء إلى أن غُمرت أكتافنا بالكامل, فصاح: هنا، ها هنا, وعدكم ووعيدكم، أنا الدينونة فهلمّوا. ثم غصنا تماماً تحت سطح البحيرة.
سمعت ارتطام أجسادٍ أخرى بالماء, لكنّي لم أقوَ على النظر لما انتابني من هلع ودوار وزوال حسّي بالمكان أو الزمان. كنت في دوّامة وجوديّة, دون أن أحسّ بقرب دليلي منّي، مما زاد خوفي أضعافاً. وما زلت أدور وأهوي حتى سقطت بقوّة على أرضيّة صلبةٍ ما. حاولت رفع نفسي, لكنّ جلّ ما استطعته كان قلْبَ جسدي على ظهري لأواجه السقف.

العبور الأخير

-١

حملقت في الأشكال الضبابيّة حولي وقد رفعت رقبتي قليلاً. لم أستطع تمييز الأجساد المتلوية على الأرضيّة, ولا شخوص الرجلين الواقفين على الفور. لكنّني أدركت بعد هنيهةٍ أن جميع الشهود كانوا هنا، وأنّ ذانك الواقفين هما آدابار وقاف.

تقدّم مني صديقي القديم ومدّ لي يده ليعينني على الوقوف, فرفعت له يدي أنا الآخر وقد اجتاحتني ذكرى غيرتي الأولى منه, لكنّها اضمحلت أمام جوهره الحق، فعانقته حالما استطعت النهوض على قدميّ، وقام هو الآخر بالمثل. أردت الاعتذار منه, لكنّي لم أقوَ على ذلك، وأدرك ذاك بفطنته, فقال: لا بأس, لا بأس.

مازال الجمع ملقًى على الأرض: الأخيّة, أم الجدائل وقاتلها المُقعد, المهرّج والجثة, مدعية الفنّ العارية, ذو الرأس الزجاجيّة المهشّمة, جرادة بحجمها الطبيعيّ, وتلك التي تشرنقت كانت قد ارتدت كوب ماء, وحتّى إصبعي الملعون كان متّكِئاً على حافة أريكة وهو يتنفّس بنفاد صبر. كانوا لايزالون غافلين عن بعضهم البعض، ولم يُتِحْ لهم آدابار الفرصة ليستأنسوا شملهم جديد الالتئام, فقام إلى الجهة المقابلة من الصالة ورفع يديه لتميد الغرفة بنا, ونتدحرج إلى إحدى الزوايا؛ إلّا قاف, كان قد استطاع المحافظة على توازنه دونما جهدٍ بادٍ, وقد نجحت في عدم الوقوع لتمسّكي بتلابيب سُترته.

بدأت الغرفة تتهادى وكأنها تطفو فوق سطح بحرٍ قلق الموج, وضربت مسامعنا أصواتٌ من كافّة أصقاع الأرض والحياة؛ نعيب, عواء, وزئير, صراخٌ, عويلٌ, ولطم، خفقان أجنحة, تشقق بذرة تفسح التراب لتأخذ نفسها الأوّل، زعانف أسراب من الأسماك تمخر المياه، ضحكات, قهقهات, طرقات، غليان البراكين, وارتجاف الأرض، شهيق أوّل, وزفير أخير. كل جحيمٍ اقترفناه, وكلّ نعيمٍ أقمناه, كان هناك حاضراً وشاهداً على حُكمنا.

-٢

دأبٌ نحو الخير. دأبٌ نحو الشر. أأعاقب الأولى بجريرة الأخيرة, أم أكافئ الأخيرة بشفاعة الأولى؟! أنا وليد الكون, أملك الزوال والكينونة، فأيهما أمنحكم؟! ترجّلت على دركات جحيمكم حتى وصلت قراره, فأدركت علل قلوبكم واختلال ذواتكم، لكنّي أدركت شكيمةً وإرادةً في بعضكم, لا تكون إلّا من لدن هذا الوجود، فرأيت نفسي, وانعكاسي.

أيتها الطبيعة، قد أوكلتِ أمرهم لي, وارتضيت قضائي بهم أيّاً كان! لست إلّا قانوناً بصورة بشر، أفأقطع دابرهم عن ملكوتك, أم أصفح عنهم إلى حين, علّهم يعيدون البيعة لك, وللوجود، فيأتون من أنفسهم بما هو خيرٌ منهم؟

آه, أيّ طريقٍ أسلك في قضائي؟! أُخسر الميزان إن رحمت, وأُخسره إن ابتليت!

- توقف آدابار عن الكلام ثمّ أشار إلى قاف بأن يتقدّم نحوه, ففعل: - كن معي فيما أقدّر عليهم, فأمنحك خلوداً فوقهم.

وجم وجه قاف وعَلَته حمرة غضب وحزن, وهزّ رأسه نحو اليمين واليسار: لا, قد أنبأتك هذا منذ حين, أليس كذلك؟! قد أنبأتك أني لست بتارك بشريتي خلفي وإن عنى هذا أن أبيد معهم, وأخلد إلى ذات فنائهم. أنا معهم حتّى تنهش نسور النسيان رممنا سويةً. لن أخون الأرض من أجل السماء, ولا فنائيّتي من أجل الخلود؛ بل سأعتنق فنائي وعبثيّتي, إلى أن يعترف الكون بأزليّتي وغايتي. لست منكم, وإن كنت أسعى أن أكون؛ بل منهم هم, وأردت اصطحابهم جميعاً على الطوف نحو التسامي والفائقيّة. فإن لم يكن هذا, فإنّي لمصطحبهم إلى مثواهم المأفون, أذرّ عليّ وعليهم تراب الوداع الأخير. فلا خير في منقذٍ لا يغرغر رسالته حتى نفَسه الأخير.

- أهذا هو قولك الفصل؟

- هو كذلك، هو كذلك.

هزّ آدابار رأسه بشيءٍ من الرضا, وشيءٍ من الأسى:

- فادنُ منّي أكثر إذاً يا صديقي الإنسان.

ففعل حتى بات على قيد خطوةٍ منه، اقترب من أذن قاف وأسرّ له بشيءٍ لم أسمعه، ثم استلّ خنجراً ووضعه في يد الآخر وأمره قائلاً: خذ, أنقذهم من دينونتهم إذاً.

-٣

شدّ قاف يده على مقبض الخنجر, لكنّه لم يستطيع إتمام الأمر, فأرخى ذراعه ونكص رأسه بأنفاسٍ متقطّعة لا إيقاع ثابت لها، فأخذ آدابار يده ورفعها مرّة أخرى, وردد في أذنه بصوتٍ مسموع:

- ليس الموت هو مصيري, بل ستحيلني إلى علّة كامنة. أتذكر ما يعني هذا, أتذكر؟ بالطبع تفعل، فأنت من تلا عليّ شروحها. هيّا, قد وعدت بإنقاذهم, فكن عند وعدك, ولا يقفنّ عهدك على إغماد هذا النصل في صدري, فهو ليس إلّا تمديداً لهدنة مزعزعة كادت تُقوَّض.

تمتم قاف: "علةٌ كامنة".

تبسّم له آدابار, وأومأ رأسه بالإيجاب.

سأضع يدي على كتفك وأنت تطعنني, حتّى تعلم أنك لست بقاتلي, وإنما محرّري من هذه المادة؛ هيا فقم بما يمليه عليك واجبك نحوهم, ونحوي.

تردد قاف, لكنّه استجمع نفَساً عميقاً, ثمّ نظر في عيني رفيقه وابتسم له مودّعاً, وغرز الخنجر بحزم في صدر الآخر دفعة واحدةً, وراقبه وهو يهوي على الأرض بلا طيف حِسّ.

هاج الكون وماج من تحتنا حتّى ظننا أنّا ملاقو حتفنا لا محالة حين خرج صوتٌ عظيم، صوت آدابار، صوت نبيّ الذات: ابتلعي أيّتها الأرض براكينك وزلازلك, وأخمد أيّها البحر أمواجك, وأخبي أيّتها السماء سجاجيلك، فلمّا تبلغ القيامةُ نصابها بعد.

اختفى الصوت, واقتحم الموج النوافذ وكأنّه قد تمرّد على تلك المهادنة، تلقّف في البداية جسد نبيّ الوجود, وحمله بعيداً عن الغرفة، ثم غمرنا, وجرّنا في

تيّار لم يكن لنا معاكسة قوّته, ليتقيّأنا في قاعة المحاكمة من جديد.
لم يبقَ من الشهود هناك سواي وقاف والأخيّة.
لم يكن قد آب إلى رشده السويّ سوى صاحب المنزل, أي صديقي قاف. اتجه نحو البوّابة الرئيسة ففتحها ليتأكد أن كلّ شيءٍ عاد إلى مكانه، ثم أعاد إغلاقها وترك نفسه تهوي على ركبتيه.
نهضت, وأسرعت إليه قدر استطاعتي، انحنيت عليه وهمست:
- نحن بخيرٍ الآن, نحن بخير.
نظر إليّ بعينيه القاسيتين, مع ابتسامة أجبرها على شفتيه:
- لا, لسنا كذلك.
علمت أن ما قاله كان هو الحقّ، فصمتُّ.
أفهناك شيءٌ يقال بعد ذاك؟! حلمٌ, امتحانٌ, آيةٌ, معجزة, وهم! لا يهم ما كان ذاك الذي اختبرناه, لكنّه كان ضميناً بإجلالنا, وقميناً بدفعي، ودفعنا لحفظ عهد قاف بإنسانيّة قادمة. لا أدري أيّ بدايةٍ تنتظرنا, ولا أيّ نهايةٍ تترصّدنا، لكن سيكون هناك أجلٌ لن يعترف لا بهدنةٍ, ولا بفرصة، سيكون مُطلقاً كحد السيف, ولن نجد منه مفرّاً إن كنا حقيقين بعقابه.
الإنسانيّة الفائقة! الإنسانيّة الفائقة.

خاتمة المجاز الأوّل

أبتاه!
أبتاه, لمْ أدرِ! أبتاه, لا أدري!
ما عدت وديعة ذاك الجسد القهريّ. قد كلفتني أمرهم, فحقّت عليّ الحُجّة.
وها أنا ذا أعود خالي الوفاض إلّا من عهد قطعه عليّ بشريّ.
مولاي, قد تركتهم لأجسادهم التي أنهكتها قوانين المادّة، فاصفح عن جهلي بقسوة امتحانهم, واغفر كيدي الأرعن ضدّهم، فما أردت سوى خيرٍ يعمّ ملكوتك, وما رأيت غايتي تلك بهم.
يحملون في جنبات دنياهم جحيمهم ونعيمهم، فدعهم لها, لا يحقّ عليهم ولا لهم إلّا ما صنعته أيديهم, وإرادتهم. قد رأيت ذاتي, بل ذاتك في قليلهم، فأرفقني هذا بمصائرهم, قريبها لا بعيدها.
دعهم يا أبتاه، دعهم! لا ينالهم منّا خيرٌ ولا شر. هم أولياء أنفسهم, فإن فشلوا فقد حقّ عليهم حتفُهم.
دعهم, وامضِ عنهم.

النهاية

النمسا

٢٠٢٠